محاضرات
في
الخطابة الإسلامية

للدكتور
محمد سعد على شعيب
استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، حمداً يعصمنا من الزلل فى القول والعمل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذى بعثه الله رحمة للعالمين. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد . فقد كان العرب أهل جاهلية وشرك ، يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش . ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القوى منهم الضعيف ، فلما جاء الإسلام بنوره وهدايته أبطل عبادة الطاغوت والأوثان والأصنام ، واتخاذ الأنداد من دون الله . وحرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وحرم الشرك بكل صوره ومظاهره ، ومنع المنكر والخمر والميسر وأكل مال اليتيم وأخذ الربا، وقذف المحصنات، وأمر بعبادة الله وحده لاشريك له، وبر الوالدين ، وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذوى القربى ....

وحتى يتفاعل الناس مع الدعوة الإسلامية، فكان لهذه الدعوة أن تستخدم كافة وسائل الإقناع والتأثير ، والخطابة هى أبرز وأهم الوسائل الدعوية .

ولهذا كان للخطابة فى الإسلام شأن عظيم فى بث عقائده وتشريعاته وقيمه وأخلاقياته وزاد الأمر بها بعد أن شرعها الإسلام ، وجعلها شعيرة من شعائره . خاصة أن الخطابة وجدت فى البيئة الاسلامية عوامل رقى وأسباب تقدم ونمو . إذ استدعت العقيدة نقاشا وجدلاً يصحبها اضطهاد وتنكيل . فلا يقال قول حتى يعارضه رأى آخر بنوع من التنازع ، وزاد من رقيها أن الإسلام شرع حرية الكلمة ، وحرية ابداء الرأى وأمر بالشورى .

وكانت خطب النبى (ﷺ) مليئة بالموضوعات والخصائص والسمات

الفصل الأول

فجزاك الله عن الإسلام ، وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله فى كتابه صديقاً ، فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به » كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ...

كنت كما قال رسول الله ﷺ ، ضعيفاً فى بدنك قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله جليلاً فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين .. لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل ، عندك قوى عزيز ، حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عنده ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء أقرب الناس إليك أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم ، وأمرك حزم ، ورأيك علم وعزم ..اعتدل بك الدين وقوى الإيمان وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا ، وفزت فوزا مبينا ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإن لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبداً » (١) .

وهكذا نجد الألفاظ فى الخطب التأبينية جزلة قوية مثيرة ، والأساليب عذبة فيها بيان بمآثر الميت ، ، والثناء عليه بذكر فضائله وأعماله الصالحه ، وحث للسامعين على الاقتداء به فى خلقه وحلمه وقوته وعزيمته وعلو همته .

---

(١) انظر : الخطابة واعداد الخطيب د / عبد الجليل شلبى ص ١٣٨ والخطابة للامام محمد أبو زهرة صـ ٧١

الفصل السابع : الخطابة الوعظية ومقوماتها

تعريف الخطابة الوعظية : الخطابة الوعظية هى التى تعتمد على تعاليم الإسلام أو تلقى لغرض من أغراضه يقول الدكتور أحمد غلوش عنها « يدور موضوع هذا النوع حول تكاليف الدين أمراً أو نهياً إذ من المعروف البديهى أن الاديان لاتنتشر ولا تزدهر إلا بالدعوة اليها ، ومن هنا كان لكل دين أنصار وأتباع يقرنون الدعوة إليه مع رسولهم أو بعده ، وقد رأينا بنى إسرائيل وهم يواصلون دعوة موسى عليه السلام، وحوارى عيسى يناصرونه بالتأييد والدعوة إلى دينه، وعلماء المسلمين بعدهم قد كلفوا بالدعوة إلى دينهم ما دام على الأرض إنسان (١) .

ويقول الدكتور عبد الجليل شلبى مجال الخطبة الإسلامية أوسع من مجال الخطبة فى الأديان الأخرى ، لأن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة ، وكل عمل صالح أياً كان نوعه مما يدعو له الإسلام ويحث عليه . وكل عمل ضار ينهى عنه الإسلام ويحذر من الوقوع فيه، وهذا مما وسع من موضوعات الخطبة الإسلامية (٢) .

ولكن أهم أنواع الخطبة فى الإسلام هى خطبة الجمعة لأنها فرض لاتصح الصلاة إلا بها ، حيث يجتمع المسلمون إلى خطبتى الجمعة والصلاة بشعور واحد فى زمن واحد فى مكان واحد ومن ثم ارتبطت خطبة الجمعة بالدعوة الإسلامية إرتباطاً وثيقاً وأصبحت جزءاً من كيان هذه الدعوة وسلاحاً من أسلحتها «لهذا أبرز الإسلام هذه الخطبة وبوأها مكانة سامية

---

(١) أنظر قواعد الخطابة صـ ٧٨
(٢) الخطابة واعداد الخطيب صـ ١٤٠

واعتمد عليها فى دعوته واستثمرها الرسول - ﷺ - والخلفاء ومن تبعهم بإحسان ، فحققوا بها انجازات كبيرة وكثيرة على صعيد الدعوة الإسلامية.

لأن خطبة الجمعة أقدر وسائل الاتصال لتنمية المجتمع فى المجالات الإقتصادية والاجتماعية والأخذ بيده من مجتمع راقى إلى مجتمع متحرك .

كما أن خطبة الجمعة هى أفضل وسائل الإتصال التى إنفردت بها الدعوة الإسلامية ، والتى تعمل على تشكيل فكر المسلمين وتكوين أرائهم واتجاهاتهم نحو مختلف القضايا التى تكتف حياة المجتمع المسلم .

وستظل خطبة الجمعة بإذن الله شعيرة خالدة ومشعل هداية وفى وسائل الدعوة الفعالة إذا أحسن إعدادها والقائها (١) .

مشقتها : الخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعاً فإذا إستهان بها الخطيب وجعلها أمراً تقليدياً سقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائياً ولهذا فهى تحتاج إلى إعداد جيد سواء بالنسبة للخطيب أو الخطبة وهذا ما سوف نبينه فيما يأتى إن شاء الله .

نبالة مقصدها: الخطبة الدينية فى الإسلام دائماً ذات مغْزىً شريف وأغراض سامية نبيلة ، لأنها دائماً تلفت الذهن إلى الجزاء الأخروى وتحذر من الحساب على أعمال الإنسان ، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى ، فهى بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية وتتسامى به إلى المعنويات بعكس الخطبة السياسية التى تدور حول أعمال مادية بحته من إنشاء مشروعات مثمرة أو تنمية للزراعة ، وتنشيط التجارة وما إلى ذلك ، والخطبة القضائية

---

(١) إنظر محمد عبد اللطيف الرفاعى : خطبة الجمعة أهميتها وتأثيرها صـ ١٤١

تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته ، وقل مثل ذلك في الخطب الأخرى فهي جميعاً تدور حول أمور دنيوية ، أما الخطبة الدينية فتمثل ذلك كله ولكنها تربطه بجزاء أخروي من الله تعالى (١) .

---

(١) إنظر المصدر السابق صـ ١٣٦ .

مقومات الخطابة الوعظية

المقوم الأول : أن يكون مستمداً من القرآن الكريم

الخطاب الدينى تكون له مقوماته السامية وأثاره العميقة فى النفوس ومكانته الراسخة فى القلوب ومنزلته التى تهز المشاعر، وتحرك العواطف إلى الخير، متى كان مستمداً من القرآن الكريم، ومستشهداً بهداياته وبتشريعاته وبأحكامه وبآدابه .

وذلك لأن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله على رسوله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور كما قال سبحانه :﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتخرجَ النَّاسَ من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ ربهِمْ إلىٰ صراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾ (١) وهو الكتاب الذى حدد للناس مايجب عليهم نحو خالقهم ، وما يجب عليهم نحو أنفسهم ، ومايجب عليهم نحو غيرهم ، ونظم علاقات الأفراد والجماعات والأمم تنظيماً حكيماً ، وبين للجميع ماهو حلال وماهو حرام ، وما هو خير وما هو شر ، وما هو حق ، وماهو باطل .

ومن روائع ما قاله الإمام إبن القيم عن الخطاب القرآنى فى « كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » : « تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له المُلك كله وله الحمد كله أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردها إليه ، مستويا على العرش لاتخفى عليه خافية ... ينصح عباده ويدلهم على مافيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ويتحبب إليهم بنعمة وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من

---

(١) سورة ابراهيم اية رقم ١

الكرامة إن أطاعوه وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ويخبرهم بما صنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب على شُبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدّق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ويهدى السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ... » (١) .

ومن ثمّ كانت مقاصده التى دعا إليها ، والتى لاتصلح الإنسانية بغيرها والتى تعد من ركائز الخطاب الدينى ، والتى منها ما يلى -

١ - تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء

٢ - تقرير كرامة الإنسان وحقوقه ، وخُصوصاً الضعفاء من الناس

٣ - توجيه البشر إلى حسن عبادة الله تعالى وتقواه

٤ - الدعوة إلى تزكية النفس البشرية .

٥ - تكوين الأسرة الصالحة وإنصاف المرأة .

٦ - بناء الأمة الشهيدة على البشرية .

٧ - الدعوة إلى عالم إنسانى متعاون .

المقصد الأول يتجلى فى هذه العناصر :

أ - إرساء دعائم التوحيد .

ب - تصحيح العقيدة فى النبوة والرسالة .

جـ - تثبت عقيدة الإيمان بالآخرة والجزاء .

---

(١) إنظر : الدكتور يوسف القرضاوى كيف يتعامل مع القرآن الكريم صـ ٥١

أما المقصد الثاني الذي يتعلق بتقرير كرامة الإنسان فيتجلى فيما يلي :

أ ـ تقرير كرامة الانسان بحيث لايرفعه إلى مقام الألوهية ، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية ، فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق متميز مكرم ، ميزه الله وكرمه وفضله على كثير من خلقه

ب ـ تقرير حقوق الإنسان مثل حق الحياة وحق النظر والتفكير وحرية الإعتقاد وحقه فى المساواة بغيره من الأجناس والأنساب والألوان وحقه فى الإستمتاع بالطيبات من الرزق وحقه فى الزواج وتكوين الأسرة ، وحقه بعد الزواج فى الإنجاب ، وحقه فى الحياة مالم يرتكب جُرماً يبيح دمه شرعاً ، وحقه فى العمل والمشى فى مناكب الأرض سعيا لكسب رزقه ، وحقه فى أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك ، رجلاً كان أو إمرأة وحقه فى احترام مسكنه الخاص وعدم دخوله إلا بإذنه ، وحقه فى صيانة دمه وماله وحماية ملكه الحلال وحقه فى صيانة عرضه وكرامته والدفاع عن نفسه ، وحقه فى العدل والانصاف ولو كان كافراً أو عدواً، وحقه فى مناقشة أولى الأمر حتى تستبين له الحقائق، أو الإحتكام إلى الله ورسوله، وحقه فى إنكار المنكر ورفض الفساد

جـ ـ تأكيد حقوق الضعفاء من الناس : فأمر بالمحافظة على مال اليتيم وحسن إستغلاله وتنميته، وجعل للفقراء حقاً فى أموال أقاربهم وسائر الأمة.

أما المقصد الذي يتعلق بعبادة الله وتقواه :ـــ

فيتجلى فى الخوف من الله وزيادة الإيمان عند سماعه لآيات الله والتوكل على الله وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإعراض عن اللغو ، وطلب العفة ، ومراعاة الأمانة والعهد ، وثبات العقيدة

وعدم الإرتياب فيها ، والمسالمة البناءة وعدم الإعتداء والشكر لله والإعتراف بالجميل وقوة الإرادة وضبط النفس (١) .

٤ ـ اما المقصد الذي يتعلق بتزكية النفس البشرية فيتجلى في :

تطهير النفس الإنسانية من الفجور الذى يدنسها ويدسيها ، وتطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله ، وتطهير القلوب من قسوة الجاهلية وغلظتها ، وتطهير الإرادات من الشهوات البهيمية ، وتطهير السلوك من الرعونة وزذائل الجاهلية .

٥ ـ أما المقصد الذي يتعلق بالدعوة إلى عالم إنساني متعاون فيتجلى في :

أ ـ تحرير الإنسان من العبودية للإنسان فلا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . فالكل سواء فى نظر الإسلام ، والكون كله مسخر لخدمته ومنفعته بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ونجومه .

ب ـ أن الله وحده الذى يملك حق التشريع المطلق للبشر بحكم خلقه إيهاهم وإمداده بالنعم التى لاتحصى فهوى الذى يملك أن يحرم عليهم أو يحل لهم (٢) .

جـ ـ الأخوة والمساواة الإنسانية ، وأن الأخوة الدينية القائمة على الإيمان أخص أنواع الأخوة وأعمقها ، ولكنها لا تنافى وجود الأنواع الأخرى من الأخوة مثل الأخوة الوطنية والقومية ، مثل قوله تعالى . ﴿ وإلىٰ عادٍ أخاهم هوداً ﴾ (٣) : ﴿ وإلىٰ ثمودَ أخاهُمْ صالحاً ﴾ (٤) .

---

(١) إنظر الدكتور أحمد ابراهيم فهى مقومات الانسانية فى القرآن الكريم صـ ١١ ـ ٢٦

(٢) انظر : الدكتور يوسف القرضاوى كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ ١٠٥ .

(٣) سورة هود آية ٥٠ .

(٤) سورة هود آية ٦١ .

﴿ وإلى مدين اخاهم شعيبا ﴾ (١) فأثبت القران بهده النصوص هده الأخوة بين هؤلاء الرسل ، وأقوامهم وهم مكذبون لهم متمربون على رسالتهم لأنهم منهم، وليسوا غرباء عنهم وهى أخوة قومية

٣ ـ العدل لجميع الناس :فليس فى الإسلام عدلاً للعرب وحدهم ولا للمؤمنين وحدهم وإنما هو عدل للناس جميعاً لخير الإنسانية. عدل مطلق لايفرق بين إنسان وآخر .

٤ ـ السلام العالمى :مما دعا إليه الإسلام كذلك ، السلام بين البشر، فالسلام هو الأصل والجهاد أو الحرب فرض للدفاع عن الدعوة إذا اعتدى عليها أو فتن أهلوها ، والقتال لمن يقاتل المسلمين لإنقاذ المستضعفين فى الأرض وتأديب الناكثين للعهود المتعدين للحدود .

ولم يشرع الجهاد للعدوان على مسالم برئ لم يؤذى المسلمين

٥ ـ دعا الإسلام إلى التسامح مع غير المسلمين والتعامل معهم بروح إنسانية عالية لاتتعصب ولا تحقد مع من خالفها، وهذا مع كل من خالف الإسلام من غير المسلمين، ولكن لأهل الكتاب من اليهود والنصارى معاملة خاصة،لاعتبارهم أهل دين سماوى فى الأصل (٢)

أن الإسلام يحترم الإنسان من حيث هو إنسان لامن أى حيثية أخرى ، الإنسان من أى سلالة كان ومن أى لون كان ، من غير تفرقه بين قوم وقوم. وبين لون ولون وبين دين ودين ، فإن اختلاف الأديان لايسقط عن المخالفين إنسانيتهم ، ولايخلعهم منها . حتى أن النبى (ﷺ) قام لجنازة ، فقيل له إنها جنازة يهودى فقال :أليست نفسا » فلا مكان فى الإسلام لجنس متفوق

(١) سورة هود ايه رقم ٨٤
(٢) المصدر السابق صـ ١١١

المقوم الثاني : أن يكون مستمداً من السنة النبوية : ـ

من المقومات الأساسيه للخطاب الديني الحكم استدعاله على الأحاديث النبوية الشريفة لأن فيها من التوجيهات القويمه والأحكام الجليلة ومن الآداب الرفيعة والفضائل العظيمة ما يؤدى إلى السعادة فى الدنيا وفى الآخرة ! وذلك لأن السنة النبوية المطهرة هى المصدر الثانى بعد القران الكريم للشريعة الإسلامية ، ودليل من أدلة الأحكام الشرعية والتى تثبت بها الأحكام العملية ، والأدلة على حجيتها كثيرة ، ليس هذا مكان سردها فايات القرآن الكريم تارة تأمر بطاعته - ﷺ - وآيات أخرى تأمر باتباع أوامره، وثالثة تأمر بالإذعان لحكمه ، ورابعة تحذر من مخالفة أمره

ومن المعلوم عند أولى العلم أن السنة المطهرة هى كل ماصدر عن الرسول - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير، وأن السنة أيضاً وحى من وحى الله تعالى كالقرآن، إلا أن القرآن وحى من الله تعالى بألفاظه ومعانيه، أما السنة النبوية فهى وحى من الله بمعناها، أما ألفاظها فبإلهام من الله تعالى لرسوله - ﷺ - ... كما أن الأحكام الواردة عن طريق السنة، تكون مع الأحكام الواردة فى القرآن الكريم ، واجبة الإتباع بالنسبة لكل مسلم أو مسلمة ولا يخالف فى ذلك مكلف عاقل (١) قال تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخُذُوه وما نهاكُمْ عنْهُ فانتهوا ﴾ (٢) وقال - ﷺ - كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال « كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى قيل يارسول الله ومن يأبى ؟ قال من أطاعنى

---

(١) إنظر الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى الخطاب الدينى وكيف يكون صـ ٦١ ٧١

(٢) سورة الحشر آية ٧

دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » (١) وللسنة النبوية المطهرة بالنسبة للقرآن الكريم وظائف متعددة من أهمها : ـ

١ ـ تكون مؤكدة لما جاء في القرآن الكريم من أمر أو نهى أو غيرهما ومن أمثلة ذلك أن القرآن أمر بالتحلى بفضيلة الصدق والنهى عن رذيلة الكذب قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ (٣)

فجاءت الأحاديث النبوية المطهرة فأكدت ذلك وقررته ومنها ماجاء فى الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (٤) .

وبناءً على ذلك يكون للحكم الشرعى دليلان أحدهما من القرآن الكريم والثانى من السنة النبوية ، والأحكام الشرعية التى يتوفر فيها ذلك كثيرة كالأمر بإقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت، والتحلى بمكارم الأخلاق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـ وتارة تكون السنة النبوية المطهرة منشئة لحكم شرعى جديد سكت عنه القران الكريم دون أن يعارضه ، فيكون هذا الحكم واجب الإتباع لأن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة التوبة ١١٩

(٣) سورة النحل ١٠٥

(٤) رواه البخارى ومسلم .

الرسـول - ﷺ - نطق بـه ، كتحريم الجمع فى الزواج بـين المرأة وعمتـها أو خالتها، وبيان أنه يَحْرم من الرضاع مايَحْرم من النسب وغير ذلك من الأحكام الشرعية .

٣ - وتارة تأتى السنة النبوية المطهرة مفصلة ومفسرة لما جاء مجملاً فى القرآن الكريم من أحكام ، فالقرآن حدثنا عن الصلاة ، وعن الزكاة ، وعن الصيام وعن الحج إلا أنه لم يبين بالنسبة للصلاة عدد ركعاتها ، أو كيفيتها أو أركانها ، وبالنسبة للزكاة لم يبين القرآن الكريم مقاديرها .

وبالنسبة للصيام لم يفصل لنا القرآن الكريم جميع أحكامه ، وبالنسبة للحج لم يبين لنا القرآن الكريم جميع مناسكه فجاءت السنة النبوية ففصلت كل أحكام هذه العبادات تفصيلاً تاماً حكيماً .

٤ - وقد تأتى السنة النبوية مقيدة لما جاء مطلقاً فى القرآن الكريم . فمثلاً القرآن الكريم يقول : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (١) .

فأمر بالطواف مطلقاً . فجاءت السنة النبوية فقيدت ذلك بوجوب أن يكون ذلك الطواف على طهارة .

٥ - وقد تأتى السنة النبوية مخصصة لماجاء عاماً فى القرآن الكريم فمثلاً يقول الله تعالى :﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (٢) .

أى أن الأولاد يرثون الآباء بهذه الطريقة التى بينها الله سبحانه وتعالى، بهذا الحكم العام ، فجاءت السنة النبوية فخصصت هذا الحكم العام بأن قصرت الميراث على الشخص الذى لم يعتد على مورثه بالقتل وبينت أنه

---

(١) سورة الحج آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

، لا ميراث للقاتل » وهكذا نرى أن السنة النبوية من المقومات الأساسية للخطابة الدينية ومن الركائز الأساسية للخطيب الداعية حتى يستطيع أن يرد على من ينادون بعدم الأخذ بالسنة أو الذين يقولون لسنا بحاجة إليها فى هذا العصر ، لأن من يقول بهذا هو إنسان جاهل لايلتفت إلى سفاهاته أو جهالاته .

والخلاصة أن الخطاب الدينى كلما كان زاخرا بالأحاديث النبوية الشريفة، إزداد قبولاً عند الناس وازداد اقناعاً للعقول وإرضاء للمشاعر، وشرحاً للصدور ، لأنها أحاديث من لاينطق عن الهوى وأحاديث من أعطاه الله تعالى جوامع الكلم .

المقوم الثالث : للخطاب الديني : أن يكون مواكباً للأحداث

من المقومات الأساسية والأركان التى لاغنى عنها بالنسبة للخطاب الدينى أن يكون مواكباً للأحداث ومتأثراً بها ومعلقا عليها ، ومؤيداً لما هو حق منها.

نقصد بالأحداث تلك الأقوال والأفعال والقضايا والصراعات والمسرات والأحزان التى تتعاقب على الناس بتعاقب الليل والنهار .

لأن الخطاب الدينى الحكيم الذى يكون له أثره الطيب والنافع للناس هو الذى يراعى فيه المتكلم أحوال الناس من واقعهم هم فإن كانوا فى حالة سرور ونعمة ساق لهم من الآيات القرآنية، ومن الأحاديث النبوية ومن توجيهات الإسلام ما يجعلهم يحافظون على هذه النعم ، ويشكرون خالقهم عليها ، لكى يزيدهم منها . كما قال تعالى : « ولئن شكرتم لأزيدنكم » .

وإن نزلت بهم بعض المصائب والأحزان والمتاعب الإجتماعية أو الإقتصادية أو غيرها، ركز حديثه على ألوان العلاج الناجح والدواء السليم ، الذى من شأنه أن يعمل على تخفيف تلك المصائب أو إزالتها ، فما من داء إلا وله دواء[1]، ومامن عسر إلا ويعقبه يسر مضاعف .

كما قال سبحانه : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا ﴾ .

ففى هاتين الآيتين ما فيهما من التسلية لكل ذى عقل سليم ، ولكل ذى قلب منيب، فقد وعد سبحانه المؤمنين الصادقين ووعده لا يتخلف، بأنه مامن شدة إلا ويعقبها الفرح، وما من هم أو غم وإلا وينكشف وتحل محلة المسرة، وما من عسر إلا ويأتى بعده يسر، متى توكل الإنسان على خالقه وأدى ما أمره به وابتعد عما نهى عنه، وصبر الصبر الجميل ، وتسلح بالإيمان العميق بقضاء الله وقدره ، وسلك المسالك التى تؤدى إلى النجاح .

(١) انظر الخطاب الديني وكيف يكون ص ٨)

وقد أكد سبحانه هاتين الآيتين بأداة التأكيد وهي حرف « إنّ » لأن هذه القضية قد تكون موضع شك ، خصوصاً بالنسبة لمن تكاثرت عليهم الهموم وألوان المتاعب فأراد سبحانه أن يؤكد للناس فى كل زمان ومكان أن اليسر يعقب العسر لا محالة . والفرح يأتى بعد الضيق لاشك فى ذلك .

وقد ساق الإمام إبن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين بعض الآثار منها : ماجاء عن أنس ابن مالك ﵁ قال : «كان النبى - ﷺ - جالساً وأمامه حفرة فقال : لو جاء العسر فدخل هذه الحفرة لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » (١) .

وعن الحسن البصرى قال : كانوا يقولون : « لايغلب عسرٌ واحد يسرين اثنين » (٢) .

ومعنى هذا أن العسر معرف فى الحالين ، فهو مفرد ، وأن اليسر منكر فمتعدد . والذى يتدبر آيات القرآن الكريم يرى أن مئات الآيات قد نزلت فى أعقاب أحداث معينه لتبين حكم الله فيها، ولتحق منها ماهو حق، ولتبطل منها ماهو باطل، ولتثبت المؤمنين، ولتدفع الشبهات والتهم الكاذبة التى ألصقها الجاحدين بالنبى (ﷺ) وبأتباعه ، ولترشد المؤمنين إلى أخطائهم حتى لايعودوا إليها ، ولتحكم فى قضايا معينة التبس فيها الحق الباطل ، ولكى تساير الحوادث والطوارئ في تجددها وفى تفرقها .. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ومن الأمثلة على ذلك ما يلي : -

١ - أن المشركين وصفوا النبى (ﷺ) بالجنون فنزل القرآن الكريم

---

(١) انظر : ابن كثير جـ ٨ ص ٤٥٣ .

ليدحض هذه التهم ، ويصف الرسول (ﷺ) بأسمى السمات وأفضلها ، فقال تعالى : ﴿ نٓ والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجراً غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) .

٢ - عندما جاء أحد زعماء المشركين وهو أبى بن خلف إلى النبى ﷺ وفى يده عظام قد رمت وبليت وأخذ يفتتها ويذروها فى الهواء ويقول يامحمد أتزعم أننى إذا صرت مثل هذه العظام سيبعثنى ربك؟ فرد عليه (ﷺ) بقوله : «نعم يميتك الله، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» . فنزل القرآن الكريم ليؤكد أن البعث حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق قال تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٧) وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (٢) .

٣ - وعندما جاء بعض المشركين وقالوا للنبى (ﷺ):يا محمد، أرنا من يشهد أنك رسول الله، فإنا لانرى أحداً نصدقه، ولقد سألنا عنك أهل الكتاب فقالوا إنه ليس لك عندهم شئ من كتبهم فأنزل الله تعالى فى الرد عليهم قول : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ (٣) .

---

(١) سورة القلم آية ١ : ٤

(٢) سورة يس آية رقم ٧٧ : ٨٠ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٩

٤ ـ عندما اندس بين المسلمين من قبيلتى الأوس والخزرج يهودى حاقد، وأخذ يذكرهم بالحروب التى كانت بينهم فى الجاهلية، وأنشدهم بعض ما كانوا يقولوه من أشعار خلال حروبهم ، وكاد بعضهم أن يعلن القتال على غيره ويلغه (ﷺ) أمْرَهم فخرج مسرعاً ومعه بعض الصحابة وقال لهم : « يامعشر المسلمين، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر ، وألف به بينكم ترجعون إلى ماكنتم عليه فى الجاهلية » (١) .

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من أعدائهم اليهود، وألقوا السلاح من أيديهم ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ونزل قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

٥ ـ وعندما زعم اليهود أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم ، أنزل الله على نبيه (ﷺ) الجواب الذى يخرس به ألسنتهم ، وأمره أن يتحداهم بأن ينطقوا أمامه بأنهم يمتنون الموت إن كانوا صادقين فى دعواهم فقال

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام

(٢) سورة آل عمران آية رقم : ١٠٠ ـ ١٠٣ .

تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صدقين (٩٤) ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٩٥) ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ (١) .

إن هذه الأحداث تُعلم الخطيب أنه كلما كانت الخطبة مواكبة للأحداث، وعندما يكون الخطاب الديني متأثراً بالقضايا والمشكلات والأحوال والهموم التي لاتخلوا منها أمة. فيعلق عليها بالأسلوب الحكيم ويعالجها بالمنطق القويم، ويأتي بالأدلة المتنوعة من شريعة الإسلام التي تهدى الأمة إلى ماينشر فيها الأمن والرخاء، والتعاون علي البر والتقوى لاعلى الإثم والعدوان . عندما يكون الأمر هكذا يكون للخطاب الديني أثره العظيم في الإصلاح وفي رقي الأمة وسعادتها.

خاصة وأن الإسلام لاينفصل عن واقع الحياة ، ولا تنفصل الحياة عن الإسلام في أي منحى من مناحيها .

فالرسالة الإسلامية موجهة للإنسان كله من حيث هو إنسان متكامل لروحه وعقله ، وجسمه ، وضميره ، وإرادته ووجدانه .

كما أن الإسلام لم يشطر الانسان شطرين، كما فعلت أديان أخر : شطر روحي يوجهه الدين، ويتجه به للمعبد. وهذا الشطر أوالنصف من اختصاص رجال الدين . ليتحكم فيه الكاهن ويقود الانسان من خلاله. وشطر آخر

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩٤ ٩٦ .

مــادى لاسلطان للدين ولا لرجــالة عليـه، ولا مكان لله فـيـه، فـالإنســان فى الإسلام - كما خلقه الله ليس مجزء أو لامشطورا ، إنه كيان واحد لاتنفصل فيه روحه عن جسمه .

لهذا فالخطاب الدينى يجب أن يعايش الانسان فى كل أحواله ويصحب الإنسان أنى اتجه ، وأنى سار فى أطوار حياته كلها .

الذى يتدبر القرآن الكريم يراه قد سما بمنزلة الصدق سمواً عظيماً، حيث جعله من صفات الله تعالى فى مواطن متعددة منها قوله سبحانه ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٢)

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (٣)

وجعله صفة من صفات الرسول (ﷺ) فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٤) .

وجعله صفة من صفات جميع الرسل ، فقال عز وجل : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥) .

ولقد كان النبى (ﷺ) هو التطبيق العملى لفضيلة الصدق فى أقواله ، وفى أفعاله ، وفى سلوكه ، وفى كل أحواله ، قبل الرسالة وبعد الرسالة وكان (ﷺ) ينفر من الكذب فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله (ﷺ) من الكذب » .

لقد بنى المجتمع الإسلامى من أول يوم على صدق الحديث ، وتحرى الحق ، ودقة الأداء، وضبط الكلام، ونبذ الظنون والإشاعات الكاذبة، لأن الحقائق الثابتة هى التى يجب أن تسود العلاقات بين الناس ، وهى التى

(١) سورة آل عمران آية رقم ٩٥ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٨٧ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٢٢ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٢٢ .
(٥) سورة يس آية رقم ٥١ ، ٥٢ .

يجب أن يقوم عليها كل خطاب، فضلاً عن الخطاب الدينى الذى يلزمه أن يكون الصدق لحمته وسداه (١)

ان الخطاب الدينى إذا خالطه الكذب فى ألفاظه، أو فى فتواه ، أو فى تفسيره للنصوص الشرعية، أو غيرها كانت مصائبه كبيرة وفتنته أليمة ، لأنه يؤدى إلى إضطراب الأمور وإلى وضعها فى غير مواضعها السليمة ، وإلى تحويل الحق إلى باطل ، والخير إلى شر ، والعدل إلى ظلم .

أما إذا قام الخطاب الدينى على الصدق فى ألفاظة ، وفى مقاصده ، وفى تفسيره للأمور ، وفى إخلاص من ينطق به ، وفى شجاعته فى أدائه بالحكمة والموعظة الحسنة ، إذا كان كذلك كان الخطاب الدينى له بركته العظيمة وله آثاره الجليلة فى النفوس وله منافعه فى قلوب الأفراد والجماعات .

إن من أوجب الواجبات بالنسبة للخطاب الدينى أن يكون مبنياً على الحقائق وحدها ، وعلى الأدلة الناصعة ، وعلى الحجج التى تخرس ألسنة كل مارق عن الحق، ونتلمس ذلك فيما يلى : -

١ - عندما حاور القرآن الكريم المشركين الذين أنكروا وحدانية الله تعالى، أو الشاكين فيها، فلم يأت لهؤلاء المشركين على أن المستحق للعبادة هو الله، ولم يكتف بأسلوب واحد لتاكيد وتقرير هذه الحقيقة ، وإنما ساق حشوداً من الأدلة والبراهين، وألواناً من الأساليب الحكيمة التى تقنع العقول وتجعل كل ذى قلب سليم يهتف من أعماق نفسه إنما الله إله واحد، قال تعالى :﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكُم كتب ربكُم علىٰ نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٢).

---

(١) انظر الامام الأكبر د / محمد سيد طنطاوى : الخطاب الدينى وكيف يكون ص ٣٨ ، ٣٩.
(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٤

فالأصل الذى تقرره هاتان الآيتان كما يقول الامام الطبرى « ان الرحمة من شئون الربوبية الواجبة لها لاعليها ، وأن صلة الله بعبادة قائمة على الرحمة التى تتدارك الخلق جميعاً وتفتح لهم منافذ الخلاص، ليرجعوا عن شركهم ويتوبوا عن معاصيهم ، هذه الرحمة الإلهية التى تنادى الكافرين والمشركين وتفسح لهم المهلة على هذه الأرض وندعوهم ليتوبوا من شركهم وينقذوا أنفسهم من الهلاك فى الدنيا والآخرة، وتهتف بالعاصين من المؤمنين وتناديهم من معاصيهم قبل أن يفاجئهم الموت

إن الله فى العقيدة الإسلامية رحيم بعباده ، يفرح بتوبتهم ويعطيهم المهلة الواسعة ، ويبعث رسله لهدايتهم ولنقلهم من أسباب الشقاء والهلاك مما يجعل كل من عرف هذا « قال انما الله اله واحد وانما أنا برئ من المشركين » (١) ومثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أرأيْتمْ إن أخذ اللَّهُ سمْعكُم وأبصاركم وختم علىٰ قُلُوبكم منْ إلهٌ غيْرُ اللَّه يأْتيكُم به انظُر كيف نُصرّفُ الآيات ثم هم يصْدفُون ﴾ (٢) .

إن هذه الآية تثبت بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة إلى افتقار الإنسان إلى ربه بحفظ سمعه وبصره وقلبه ، ، وتبين له أن الله الذى وهبه هذه النعم قادر على سلبها وإعادتها ، كما فى التنبيه إلى نعم السمع والبصر والفؤاد لفت العقول لتتدبر افتقار الإنسان إلى ربه وحاجته لهذه الأعضاء فلو زالت لاختلت حياته، وفسدت مصالحه. وأن الله وحده هو الذى خلقها ومتعه بها فهو وحده الذى يستحق أن يعبد ، لا هذه الأصنام - أو الأشياء التى لاتخلق شيئا ولا تملك شيئا ولا تضر ولا تنفع (٣)

---

(١) انظر تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام - د إبراهيم الكيلانى صـ ٥٤

(٢) سورة الأنعام أية رقم ٤٦ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٥٦

ومثل قوله تعالى ﴿قُلْ أرأيْتكُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُ الله أوْ أتتْكُمُ السّاعةُ أغير الله تدعون إن كُنتمْ صادقين (٤٠) بل إياهُ تدْعُون فيكْشفُ ما تدْعُون إليْه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ (١) .

والمعنى أن الله تعالى يقول لهؤلاء المشركين :إن نزل بكم عذاب الله الذى نزل بالأمم السابقة أو جاءتكم الساعة التى تبعثون فيها من قبوركم ففى هذه الحال لاتدعون إلا الله ولا تستجيرون بغيره، بل تدعون ربكم الذى خلقكم وإليه تفزعون دون كل شئ غيره ، لأنه القادر على كل شئ ومالك كل شئ ، فلاصنم ولا وثن تنادونه أو تسألونه ، فكيف تسودنها بالله ، وتجعلونها نداً له فى العبادة (٢) . وتارة نجد القرآن الكريم يبين شمول علم الله تعالى بكل الكائنات معتمداً على الحقائق الثابتة كما قال تعالى : ﴿وعندهُ مفاتحُ الغيْب لا يعلمُها إلاّ هو ويعلمُ ما في البرِ والبحرِ وما تسقُطُ من ورقة إلاّ يعلمُها ولا حبة في ظُلُمات الأرْضِ ولا رطْب ولا يابس إلاّ في كتاب مُبين﴾ (٣) .

فهذه الآية الكريمة تبين شمول علمه لجميع الكائنات ، ما غاب عنا وما ظهر، وما دق واستتر ، كبيرها وصغيرها. الله يعلمه وهو وحده العليم بشئون خلقه ، لاتغيب عنه غائبة فى الأرض ولا فى السماء مهما كان أمرها ضئيلاً فى عيون الناس كورقة شجرة من أشجار الأرض وغاباتها ، أو حبة غابت فى بطون الأرض فهو عليم بها ، .

إن الخطاب الدينى إذا ما كان صادقاً فى ألفاظه ، وفى مقاصده وكان مدعماً بالأدلة العقلية والنقلية التى تقنع العقول ، وترضى العواطف ، كان خطاباً قويماً نافعاً للأفراد، ونافعاً للجماعات، ونافعاً للأمة، ورافعاً لها من كبوتها وعثرتها إذا كبت أو عثرت .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٠ ، ٤١

(٢) انظر . تفسير الطبرى جـ ٧ صـ ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٨

المقوم الخامس للخطاب الديني : أن يكون قائما على الاعتدال والتوسط :ـ

ويقصد بالاعتدال والتوسط أن المتحدث بالخطاب الدينى عليه أن يتجنب الإسراف فى فتح باب الآمال فى النجاح وفى النصر ولو بدون عمل ، كما عليه أن يتجنب فتح باب اليأس والقنوط حتى مع العمل، وإنما المتحدث بالخطاب الدينى عليه أن يكون ملتزماً بالاعتدال والتوسط فى خطابه لأن شريعة الاسلام تقوم على هذا التوسط والإعتدال فى كل أحكامها وآدابها وتشريعاتها ومعاملاتها (١) . ان الاعتدال والتوسط هو الذى يليق برسالة عامة خالدة جاءت لتسع أقطار الأرض ، وأطوار الزمان ، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد فى مختلف شؤون الحياة ، الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد ، بين بواعث الدين ، ومطالب الدنيا ، الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة .

ونرى هذا الإعتدال والتوسط فى الشريعة الاسلامية بالنسبة للعبادات فى كثير من النصوص ومنها ما يلى :ـ

ـ وقعت بعض المواقف من بعض الصحابة تشير إلى التشدد فى الدين للإزدياد من الخير، ولكن الرسول (ﷺ) ردهم عن هذا السبيل ، وقوم هذا العوج ، وصحح نظرتهم ، فعن أنس رضي الله عنه قال : « جاء ثلاثه رهط إلى بيوت أزواج النبى (ﷺ) يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا وأين نحن من النبى وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم أما أنا فسأقوم الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال : أنتم الذين

---

(١) د / محمد سيد طنطاوى : الخطاب الدينى وكيف يكون ص ٤٨

قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١) وعندما عُلم بما كان يفعله عبد الله بن عمرو بن العاص فأرسل إليه وقال له : « أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت إنى أفعل ذلك قال فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك ، ونفهت نفسك ، وإن لنفسك حقاً ولأهلك حقاً فصم وأفطر وقم ونم » (٢) .

وبينما هو ﷺ يخطب إذا برجل قائم فسأل عنه فقالوا :إنه أبو اسرائيل نذر أن يقوم ولايقعد ولايستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبى (ﷺ) : « مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

هكذا كان اهتمام النبى(ﷺ) بأصحابه فلم يقرهم على مسالكهم . بل هذب هذه النزعة وردهم . إلى التوسط والاعتدال الذى يعد من أبرز خصائص الاسلام ، لأن الوسطية تعنى استقامة المنهج والبعد عن الميل والإنحراف ، فالمنهج المستقيم كما قال أبو السعود فى تفسيره « هو الطريق السوى الواقع وسط الطرق الجائرة .. فإذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين . فالخط المستقيم انما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة الهدية إليه وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائفة » (٣) .

لقد فهم هؤلاء الصحابه أن الأخذ بالأشد هو الأتقى والأنقى وهو الأقرب إلى الله سبحانه ، لكن الرسول (ﷺ) أوضح لهم أن الطريق الصحيح هو فى الاتباع والاقتداء، وأن أتباع اليسر والسهولة والأخذ برخص الله هو منهج رسول الله ﷺ .

---

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح باب الترغيب فى النكاح حديث رقم ٥٠٦٣

(٢) صحيح البخارى كتاب النكاح حديث رقم ١١٥٣

(٣) تفسير ابى السعود جـ صـ ١٢٣

ومن هنا يجب على الخطيب أن يخاطب الناس من منطلق الترغيب ولهذا أمر الله عباده أن يدفعوا بالتى هى أحسن فقال سبحانه :« ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » يقول صاحب الظلال فى تفسيره : « تصدق هذه القاعدة فى الغالبية الغالبة من الحالات ، وينقلب الحياج إلى وداعة ، والغضب إلى سكينة ، والتبجح إلى حياء بسبب كلمه طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية فى وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام ، ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا ومرودا . وخلع حياءه نهائيا، وأفلت زمامه ، وأخذته العزة بالإثم » (١). كما أمرنا القرآن الكريم بترك أساليب الإستفزاز واستخدام الحجه فقال سبحانه :﴿ ولا تسبُّوا الَّذين يدْعُون من دُون اللّه فيسبُّوا اللّه عدْواً بغيْر علْم كذلك زيَّنَّا لكُلِّ أُمَّة عملهُم ثُمَّ إلىٰ ربِّهم مَّرْجعُهُمْ فيُنبِّئُهُم بما كَانُوا يعْملُون ﴾ (٢) . يقول صاحب الظلال «ان الطبيعة التى خلق الله الناس بها، أن كل من عمل عملا، فإنه يستحسنه ويدافع عنه ، فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسنا ، وإن كان على الضلال رآه حسنا كذلك فهذه طبيعه فى الانسان وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق .. ولكن إذا سب المسلمون آلهتهم اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهيه الله ، دفاعا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم فليدعهم المؤمنون لما هم فيه « ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » وهو أدب يليق بالمؤمن المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذى الذى

(١) فى ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢١ ، ٣١
(٢) سورة الأنعام اية رقم ١٠٨

هو عليه فعلى الخطباء البعد عن سب رموز الضلال (١) خاصة أن كتاب الله تبارك وتعالى ملئ بأساليب الترغيب من ذلك ما يلى –

١ ـ الترغيب فى جلس الطاعات ، قال تعالى :﴿ وعد اللَّهُ الَّذين آمنوا منكم وعملُوا الصَّالحات ليَسْتَخْلفنَّهُمْ في الأَرْض كما اسْتخْلف الَّذين من قبلهم وليُمكِّننَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارْتضىٰ لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم مِّن بعْد خوْفهمْ أمْنًا ﴾ (٢) فإنه تعالى وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصالح العمل ، أن يجعلهم خلفاء فى الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم ، وأن يجعل دينهم ثابتاً مقرراً بحيث يستمرون على العمل به ويرجعون إليه فى كل ما يأتون ، وما يذرون، وأن يبدلهم بعد الخوف من الأعداء أمناً بتأييدهم بالنصرة والإعزاز .

بمثل هذا الأسلوب الحكيم يستطيع الخطيب أن يفتح قلوب الناس لدعوته، ويدفعهم إلى العمل الطيب المقبول .

ومن أساليب الترغيب التى جاءت فى القرآن الكريم والتى تحصن على تقوى الله ، قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٣) .

والترغيب فى التمسك بالدين فى مثل قوله :﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا ﴾ (٤)، والترغيب فى الإيمان والإستقامة بمثل قوله : ﴿ ومن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢ صـ ١١٦٩ .
(٢) سورة النور آية ٥٥ .
(٣) سورة الطلاق
(٤) سورة الجن آية ٢٦ .
(٥) سورة البقرة .

عليهم ولاهم يحزنون ﴾ (١) وقوله سبحانه ﴿ إن الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا ﴾ (٢).

فهذه الآيات وغيرها كثير توضح للخطيب أهمية أسلوب الترغيب فى الخطابة والدعوة إلى الله

وإذا كان القرآن الكريم مشتملاً على فيض قرآنى زاخر فى أساليب الترغيب فإن سنه النبى (ﷺ) فيها هى الأخرى الكثير من مثل قوله (ﷺ) « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام : إنى أحب فلان فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الأرض (٣) .

ويمثل حديث بن عباس رضى الله عنهما حيث قال : « كنت خلف رسول الله (ﷺ) يوماً فقال : « ياغلام إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله ، يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (٤) .

٢ ـ الترغيب فى أنواع الطاعات :

رغب القرآن الكريم والسنة النبوية فى الطاعات التى كلف بها المسلم ، وبينت النصوص فضل هذه الطاعات والآثار الإيجابية التى تعود على المسلم

---

(١) سورة فصلت

(٢) سورة مريم آية ٩٦ .

(٣) رواه البخارى

(٤) رواه البخارى ومسلم .

من فعلها واقامتها، من ذلك الترغيب فى الصلاة والصدقة والصوم والحج والجهاد واعلاء كلمة الله ، وبر الوالدين ، وإصلاح ذات البين ، وأيضا ترغيب الناس فى أنواع الفضائل النفسية، كالشجاعة، والعفة، والصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والإخلاص ، والحلم ، والتواضع، والكرم ، والسخاء، والصبر لدى الشدائد ، وطهارة الضمير ، وحب الخير للناس ، كذلك رغبهم فى إتقان العمل والصنائع الوطنية والحث على ترويجها بالإقبال عليها ، لما فى ذلك من تشجيع الحركة الإقتصادية التى تعز بها الأمم والشعوب .

ومن أساليب الترغيب المهمة تذكير القوم بماهم عليه من نعيم ، وأن من شأن ذلك يدعوهم إلى طاعة الله الذى أنعم عليهم بهذه النعم ، والتحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا بالله ، ومع زوال النعم نزول العذاب . ومن الآيات الكريمة المبينه لهذا النوع من الأسلوب قوله تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ واذْكُرُوا إِذْ جعلكُمْ خُلفاءَ منْ بعْد قوْم نُوحٍ وزادكم في الخلْق بصْطة فاذْكُرُوا آلاء الله لعلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى عن هود أيضا ﴿ واتَّقُوا الَّذي أمدَّكُم بما تعلمُون (١٣٢) أمدَّكُم بأنعامٍ وبنين (١٣٣) وجنَّات وعُيُونٍ (١٣٤) إنِّي أخافُ عليْكُم عذاب يوم عظيم ﴾ (٢) .

وقال سبحانه عن صالح عليه السلام ﴿ واذْكُرُوا إِذْ جعلَكُمْ خُلفاء من بعد عاد وبوَّأكُم في الأرْض تتَّخذُون من سُهُولها قُصُورًا وتنْحتُون الجبال بيوتا فاذْكُرُوا آلاء الله ولا تعْثوْا في الأرْض مُفْسدين ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الاعراف أية رقم : ٦٩ .

(٢) سورة الشعراء أية رقم : ١٣١ ١٣٥

(٣) سورة الأعراف اية رقم : ٧٣ .

ثانيا : أسلوب الترهيب

فكما أن الخطيب لايستغنى عن أسلوب الترغيب فإنه أيضا لايستغنى أبداً عن أسلوب الترهيب ، فكتاب الله تعالى يقوم على الترغيب والترهيب ، وأيضـا سنة النبى (ﷺ) وذلك لحمل الناس على ترك الذنوب والمعاصى صغيرها وكبيرها ، وبيان آثارها المدمرة فى الدنيا والآخرة ، ويتضح ذلك من خلال ما يأتى : ـ

١ ـ التحذير من معصية الله :لقد حذر الله عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته وأقامه من سطوات مهرة وجبروته ووحدانيته. حيث جعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المزمومة محل سخطه وموضع انتقامه، كما جعل الأجساد القذرة عرضة للأمراض القاتلة، والله سبحانه لايظلم عباده قال تعالى : ﴿ ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

إن النفس الإنسانية كما تقاد عن طريق الرغبة ، تقاد عن طريق الرهبة أيضا ، فتكف عن الرذيلة خوفاً مما يعقرها من منغصات « فالذى يستهين بالحقوق ويغتر بقوته .. تخوفه بصاحب الجبروت الذى إذا سخط عليه خسف به . والله سبحانه وتعالى قوى متين وعزيز نو انتقام ، وديان لايموت، والتخويف به حق ، وأثر الخوف على الإنسان بعيد المدى . فالطالب الذى يخشى السقوط يحصل علومه والتاجر الذى يخاف الإفلاس يضاعف نشاطه .

---

(١) سورة النساء

ولذلك قال يحيى بن معاذ مسكين بن ادم لو ىاف النار ، كما يخاف الفقر لدخل الجنة وترك المعاصى تهيباً لله وا تقاء سخطه » (١) .

إن الترهيب من الآثام يدفع الإنسان العاقل إلى استجلاب رضا الله، واستجلاب رحمته، لأن الإنسان لايقوى على غضب الله ونقمته ، قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين .فجعلناهم سلفاً وموعظة للمتقين ﴾ (٢) وقال سبحانه عن بنى اسرائيل: ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٣) .

وأساليب الترهيب فى القرآن الكريم كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ ولو يُؤاخذُ اللّهُ النّاسَ بظُلْمهم مَّا تركَ عليْها من دابّةٍ ﴾ (٤). وقوله تعالى :﴿ ومن يُشاقِق الرّسُولَ منْ بعْد ما تبيّن لهُ الْهُدىٰ ويتّبعْ غيْر سبيلِ الْمُؤْمنين نُوله ما تولّىٰ ونُصْله جهنّم وساءتْ مصيراً ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ (٦) .

وفى آيات القرآن الكريم أيضاً بيان لعقوبات نزلت بأمم تمردت على الله ، وحادت عن الطريق، فسلبت منها النعمة التى طالما مرحت فيها، وحل بها مالم تكن تتوقع .

قال تعالى :﴿ لقد كان لسبأٍ في مسْكنهمْ آيةٌ جنّتان عن يمينٍ وشمال كلوا من

---

(١) انظر : فضيلة الشيخ محمد الغزالى : مع الله ص ٣٠١ .
(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ ، ٥٦ .
(٣) سورة البقرة
(٤) سورة النحل آية رقم ٦١
(٥) سورة النساء آية رقم ١١٥ .
(٦) سورة النساء

رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور (١٥) فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ (١) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٢)

ومثل قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر ﴾ (٣) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ (٤) .

ومن أساليب الترهيب التى جاءت فى السنة النبوية والتى تنذر بعقوبات عاجلة مارواه البيهقى عن بن عمر رضى الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال: « يامعشر المهاجرين، خصال خمس إن أبتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن .لم تظهر الفاحشة فى قوم قسط حتى يعلفوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا

---

(١) سورة سبأ أية رقم ١٥ ١٧

(٢) سورة النحل أية رقم ١١٢

(٣) سورة القمر أية رقم ١٨ ٢١

(٤) سورة القمر الآية رقم ٣٣ ٣٨

بالسنين وشدة المؤونه وجور السلطان. ولم يمنعوا زكات أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولنقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض مافى أيديهم . ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم » (١) .

ومن أساليب الترهيب أيضاً ماجاء فى الصحيحين أنه (ﷺ) قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (٢) .

وأيضاً مارواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال : « أتدرون مَن المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع . فقال ان المفلس من أمتى من يأت يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأت وقد شتم هذا . وقذف هذا .

وأكل مال هذا . وسفك دم هذا . وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » (٣) .

وهكذا ينبغى أن تكون الموعظة مبنية على الترغيب والترهيب .

ثالثاً : ضوابط الترغيب والترهيب .

للترغيب والترهيب ضوابط بها يتحقق المطلوب، يقول الدكتور حسين خطاب عن هذه الضوابط : « من أبرزها :

أ ـ ألا نعظ مرغبين أو مرهبين إلا بما ثبت عن رسول الله (ﷺ)، وذلك

---

(١) رواه البيهقى والمنذرى فى الترغيب والترهيب جـ ٣ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه مسلم .

حتى لايتحول العمل الدعوى فى هذا الميدان الى مسألة تلاعب ... فإذا تأثر المدعو من ترغيب أو ترهيب وثبت له بعد ذلك عدم صحة ماسمعه، فسوف يفقد الثقة فى كل الدعاة ، ظناً منه أنهم يثيرون العواطف بلا سند» (١)

ولهذا يجب على الخطيب أن يبتعد فى ترغيبه أو ترهيبه عن الخرافات والترهات والاسرائيليات التى تمتلئ بها الروايات غير الثابتة عن رسول الله (ﷺ) وفيها اتهام صريح للأنبياء المعصومين ، والملائكة المقربين .

ب ـ فى حالات خاصة يجب على الخطيب أن يعظ مرغباً فى الرجاء فقط، ولا يلجأ إلى الترهيب، فحين يجد مدعواً قد تمكن اليأس منه بسبب اسرافه على نفسه فى المعاصى فعلى الخطيب الداعية أن يفتح له باب الرجاء .

ولا يستحسن فى هذه الحالة أن نستعمل معه أسلوب الترهيب ودليل ذلك ما جاء فى الصحيحين عن الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم هم بالعودة إلى الله تعالى، فلما خوفه الراهب، ولم يفتح له باب الرجاء قتله وأصبح عدد قتلاه مئة، ومع إصرار الرجل على العودة إلى الله أخذ يسأل مرة ثانية فأرشد إلى عالم يفتح له باب الرجاء ، فأصبح على يديه من الناجين ومن أهل الجنة .

وأيضاً من الأحوال التى يعظ فيها الخطيب الداعية مرغباً فى الرجاء فقط إذا وجد مدعواً قد غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله والدليل على ذلك ما جاء فى حديث الرهط الذين سألوا عن عبادة رسول الله (ﷺ) (٢) .

---

(١) راجع ضوابط العمل الدعوى فى مجال الموعظه . د / حسين مجدى خطاب ـ ص ١٦ . ٢ بتصرف .

(٢) رواه البخارى

وفى الجانب الآخر هناك حالات يجب على الخطيب أن يرهب فيها فقط ، مثال ذلك عندما يجد مسرفاً مستهتراً ومسوفاً، يقول غداً سأتوب، أو لابد أن يغفر الله لنا، وإلا فلن يدخل أحد الجنة .. ومن هذا النوع مسوفين ومستهترين فهؤلاء يجب على الخطيب أن يرهبهم فقط . ويبين لهم أن الذنوب بريد الكفر، وأن الآجال إنما ذكرت لنستعد للتوبة والعمل الصالح للقاء الله .

وأيضاعندما يجد الخطيب طائعاً مغروراً بطاعته، وأنه فقد ذل العبودية، وظن أنه يعمل الصالحات سيضمن الجنة، وأخذ يمقت ويسخر من الصالحين . فمثل هذا يحتاج إلى جرعات متتابعة من الترهيب حتى يضيق ويعود إلى مقام العبودية .

بمثل هذه الضوابط ينجح الخطيب فى دعوته للناس ، وتنجح الخطابة فى دفع الناس إلى العمل الصالح .

الفصل الثانى
الخطيب بين الأصالة والمعاصرة

الفصل الثاني :

الخطيب بين الأصالة والمعاصرة

علم الخطابة يعتمد على ثلاثة أركان وهذه الأركان لابد من معرفتها ودراستها لمن يريد أن يتعلم هذا العلم أو يتعرف عليه وهى الخطيب والخطبة والمستمع

الخطيب :-

الخطيب هو الركن الأهم فى علم الخطابة ، فالخطابة تبدأ أولاً بالخطيب والخطيب يحتاج إلى إعداد طويل وإذا كان الله سبحانه وتعالى يختار رسله للدعوة ويعدهم لحمل رسالته ويوحى إليهم بالرسالة ، لينذروا الناس ويبشروهم، كما قال تعالى : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (١) .

فإن خلفاء الرسل وأتباعهم يحتاجون إلى عدة فى قيامهم بمهمة الدعوة إلى الله تعالى ، والخطيب داعٍ إلى الله عز وجل يقوم بمهمة هى من الدين فريضة ، وإذا كان ذلك كذلك فلابد أن يقدم العلم على العمل ، حتى تكون دعوته إلى الله على بصيرة ، ويكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر منبعثاً من معرفة الدليل الشرعى من كتاب الله سنة رسوله - ﷺ -

إعداد الخطيب :

يشتمل إعداد الخطيب لكى يستطيع أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل إلى عناصر متعددة منها :

الإعداد العلمى، والثقافى، والفنى، والنفسى، والإجتماعى والخلقى،

---

(١) سورة النحل آية رقم ٢ .

لخطيب مطالب فى كل الأحوال أن يكون موسوعه علمية، قادر على قراءة كل ما يتصل بدعوته ومجتمعه ومهمته من علوم وافكار

أولا : الإعداد العلمى :-

الإعداد العلمى للخطيب هو أهم العناصر التى يتوقف عليها نجاح الرسالة التى تحملها الخطبة، ولهذا يجب فى إعداد الخطيب أن يبدأ بحسن الاختيار وضمن مواصفات معينة لمن سيكون خطيب المستقبل وأول هذه المواصفات الفطرة السليمة والسلوك النموذجى والإستقامة، ورجاحة العقل، والجرأة فى الحق ، واللسان المبين والرغبة الصادقة فى الدعوة إلى الله

لأن من لم تتحقق فيه هذه الصفات فهو لايستطيع أن يقود نفسه فما بالنا بغيره قال الإمام الجيلانى لجاهل يريد أن يقود غيره :« أنت أعمى كيف تقود غيرك إنما يقود الناس البصير، إنه يخلصهم من البحر السامح المحمود، إنما يرد الناس إلى الله عز وجل من عرفه أما من جهله فكيف يدل عليه ؟ » (١) ،

وبعد هذه العوامل الرئيسية لاختيار خطباء المساجد فإنه لابد من وضع المناهج الدراسية ، وإعداد خطط للتدريب تمكنهم من ممارسة نشاطهم على الوجه الأكمل

وإلى جانب ذلك فلابد من الفهم الكامل للعلوم الإسلامية والحفظ الصحيح للقرآن الكريم والفهم العميق لسيرة الرسول الله - ﷺ - والإدراك الواعى لأصول الفقه والعقيدة، والمعرفة الدقيقة للتاريخ الإسلامى والتاريخ المعاصر ، والمذاهب السياسة، والنظريات الفكريه وأحوال العالم الإسلامى ومشكلاته

---

(١) انظر الفتح الربانى للامام الجيلانى صـ ١١

وقضايا الأقليات، وإلى جانب هذه المعارف فلابد من وضع مناهج تطبيقيه فى علم الخطابة وأصول الدعوة ، وفنون الإلقاء، ومهارات الاتصال وكذلك متابعة الاستكشافات الحديثة فى علوم الفضاء والطب والإحصاء، وعلم النفس والعلوم الكونية والمخترعات التى اقتحمت بيوت الناس، لأن جهل الخطيب بهذه المعطيات العصرية تجعله يعيش بمعزل عما يدور بالعالم من أحداث ولا تمكنه من تناول الأمور من المنظور الإسلامى الصحيح (١) .

ورب قائل يقول : لَمْ تعد هناك إمكانية فى أن يكون عالم الدين - كما فى العهود السابقة - موسوعياً يفهم فى الإقتصاد والفلك والحشرات. وأمور الدنيا والدين فقد تفتت العلم فأصبح لكل جزء منه متخصصون ولابد لكل واحد من هؤلاء المتخصصين أن يدلى بدلوه فى مجال تخصصه .

وليترك بعد ذلك لعلماء الدين أن يقولوا هنا خطوط حمراء فلا تتعدوها وما وراء ذلك فافعلوا ما شئتم (٢) .

مع أن هذا القول له وجاهته ، ولكن ليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فإنها لاتحجم عن النظر فى كل علم وفن بل ترتبط بكل شأن مِنْ شئون الناس . ومن ثم وجب أن يكون الخطيب ملماً بقسط وافر من المعلومات وبكل ماله صلة بالجماعة التى يخاطبها ليعرف نواحى التأثير والمواطن التى يطرق حس الجماعة من ناحيتها ، ويبتعد عما ينفرها حتى لايجعل قلوبها متجافية عنه . فالخطيب له الصدارة ، والفتوى عليه .

والمناصحة والإرشاد مهمته. والقدرة على ذلك أمر صعب لايتأتى لصاحبه إلابعد جهود شديدة، وبذل متواصل فى التحصيل العلمى والبحث الموضوعى

---

(١) إنظر محى الدين عبد الحليم خطبة الجمعة والاتصال بالجماهير صـ ٦٥ ، ٦٨ والأستاذ محمد الغزالى مع الله صـ ٨٠ .

(٢) الأستاذ عمر عبيد حسن . فقه الدعوة صـ ١٧ .

أهم ما يتسلح به الخطيب الداعية :-

من الإعداد العلمى للخطيب أن يتسلح بعدة أمور تعتبر الدعائم الأساسية للخطيب وهى :-

أ - أن يجيد تلاوة القرآن الكريم . ويحفظه كله أو معظمه ويتدبر بعض آياته ، ويفقه بعض أحكامه ، ويحافظ على تلاوته . فإن ملازمة كتاب الله تغنى حامله بلاغة وبياناً وتمده بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والحجج الفاصلة وتزكيه وتسعفه فى مخاطبة العقول والقلوب .

وفى إثارة العواطف والفكر والإنتباه، وفى ارشاد الناس إلى الخير والهدى، فيصل إلى مراده من أقصر طريق وأقوم سبيل فلا يضل ولا يشفى وفى القرآن الكريم العقيدة الخالصة . والشريعة الغراء ، والأخلاق الكريمة والمسائل الفضلى التى يخاطب الناس بها، ومن القرآن الكريم يعرف دوره ومصيره ، ويتلمس النور والشفاء .

ولهذا كان النبى - ﷺ - يختبر الدعاة فى تمسكهم والتزامهم وتفقههم وإحاطتهم بالكتاب الكريم .

فلما بعث - ﷺ - إلى اليمن قال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله قال فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال :فبسنة رسول الله - ﷺ - . قال فإن لم يكن فى سنة رسول الله - ﷺ ؟ قال :أجتهد رأى ولا آلو. قال فضرب رسول الله - ﷺ - صدرى ثم قال الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله رسوله ﷺ » (١) إن إجابة معاذ - رضي الله عنه - تشير إلى شمول معرفته بالقرآن لأنه يبحث فيه كله عند القضاء فإن لم يجد ينتقل إلى السنة. وكذلك فإن المعرفة الشاملة للقرآن تمكن الخطيب الداعية من هداية الناس والأخذ بأيديهم حين الإختلاف .

---

(١) رواه البخارى

ب - أن يتعمق الخطيب الداعية فى علوم القرآن وفى السنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين ، ومذهب السلف الصالح وعلوم الشريعة، والسيرة النبوية والعبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها من فروع الثقافة الإسلامية .

إن تمكن الخطيب من هذه العلوم تجعله بصير بدعوته فلا يقدم غير المهم على المهم ، ولا المهم على الأهم ، ولا المرجوح على الراجح ولا المفضول على الأفضل بل يقدم ماحقه التقديم ويؤخر ، ما حقة التأخير، ولا يكبر الصغير ، ولا يهون الخطير ، بل يضع كل شئ فى موضعه بالقسطاس المستقيم بلا طغيان ولا إخسار(١) .

إن العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية يبينان راجح الأعمال من مرجوجها وفاضلها من فضولها كما يبنيان صحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها . وهذا لايتأتى للخطيب إلا بفهمه لفقه الأولويات .

أهمية فقه الأولويات للخطيب :-

أ- أولوية تقديم الأهم على المهم :

١ - من ينظر إلى حياتنا فى جوانبها المختلفة - مادية كانت أو معنوية، فكرية أو إجتماعية أو إقتصادية أو غيرها - يجد الإختلال الواضح فى كل أقطارنا العربية والإسلامية ، بل ويجد مفارقات عجيبة - فيجد مايتعلق بالفن والترفيه مقدم على ما يتعلق بالعلم والتعليم . وفى الأنشطة الشبابية : يجد الاهتمام برياضة الأبدان مقدماً على الإهتمام برياضة العقول، وكأن رعاية الجانب الجسمانى هى كل شئ ، فهل الإنسان بجسمه أو بعقله ونفسه ؟

---

(١) إنظر الدكتور يوسف القرضاوى فى فقه الأولويات صـ ٩ .

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى :

« كنا نحفظ قديما من قصيدة أبى الفتح الشهيرة

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لابالجسم إنسان

ولكننا نرى اليوم أن الإنسان بجسمه وعضلاته قبل كل شئ وفى صيف ١٩٩٣م لم يكن لمصر كلها حديث إلا عن اللاعب الذى « عرض » للبيع، وارتفع سعره فى سوق المساومة بين الأندية حتى بلغ نحو ثلاث أرباع المليوم من الجنيهات .

وليتهم إهتموا بكل أنواع الرياضة وخصوصاً التى ينتفع بها جماهير الناس فى حياتهم اليوميه وانما اهتموا برياضة المنافسات وبخاصة كرة القدم ، التى يلعب فيها عدة أفراد وسائر الناس متفرجون ! !

وأصبحنا فى منتهى الجد فى اللعب ووضعوا فى ضوابط اللعب مايسمى بالوقت الضائع ، ولم نسمع بمثل هذا المصطلح فى بقية أعمالنا وأضحى الأمر ، كما يقول فضيلة الشيخ محمد الشعراوى - عليه رحمه الله : « منتهى الجد فى اللعب ، ومنتهى اللعب فى الجد »

فأين دور الخطيب الفقيه ليرد الناس إلى رشدهم بعد هذا الجموح الهائل الذى جعل نجوم المجتمع وألمع الأسماء فيه ليسوا هم العلماء ، ولا الأدباء ولا أهل الفكر، أو الدعوة بل هم الفنانين والفنانات، ولاعبى الكرة وأمثالهم. إن أجهزة الإعلام فى الوطن العربى أصيبت بنكسة فكرية وعقلية، فالصحف والمجلات والتلفيزيونات والإذاعات لاحديث لها إلا عن هؤلاء ومغامراتهم

وأخبارهم مهما تكن تافهة، إذا ولد للفنان طفل أو تزوج بامرأة ارتجت الأرض فرحاً وسروراً، وإذا مات فترتج الأرض أيضاً لموته وتمتلئ الفضائيات وأنهار الصحف بالحديث عنه وبيانه، وبخطواته، وبلفتاته، وحركاته وضحكاته .

إما إذا مات العالم أو الأديب فلا يكاد يحس به أحد ! .

وفى الجانب المالى : ترصد المبالغ الهائلة ، والأموال الطائلة للرياضة والفن ، ورعاية الإعلام ، في حين تشكو الجوانب التعليمية والصحية والدينية والخدمات الأساسية التقتير عليها وادعاء العجز والدعوة إلى التقشف وغير ذلك .

إن الخطيب هو وحده القادر على تغيير هذا الخلل والمسار المعكوس .

٢ - أولوية التخفيف على التعسير : الخطيب الداعية مطالب في خطبه أن يقدم التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير ولا يتأتى له ذلك إلا إذا كان محيطاً بالكتاب والسنة حيث دلت نصوصهما على أن التيسير والتخفيف أحب إلى الله وإلى رسوله - ﷺ قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٢) وقال عز وجل : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (٣) . وقال - ﷺ - « خير دينكم أيسره » (٤) . وتقول عائشة : « ما خير رسول الله - ﷺ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٥ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

(٣) سورة المائدة رقم ٦ .

(٤) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد إنظر صحيح الجامع الصغير صـ ٣٣١٩ .

بين أمرين، إلا أخذ ايسرهما مالم يكن إثماً، فإذا كان إثما كان أبعد الناس عنه » (١) وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - «قال يسروا ولاتعسروا، وبشروا ولا تنفروا (٢) .

وكان رسول الله - ﷺ - يحب التيسير فى تعليمه الإسلام لمن يدخل فيه ولا يكثِّر عليه الواجبات يثقله بكثرة الأوامر والنواهى وإذا سأله عما يطلبه الإسلام منه اكتفى بتعريفه بالفرائض الأساسية ولم يعرفه بالنوافل ، فإذا قال له الرجل : لا أزيد على ذلك ولا أنقص منه قال : أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق بل رأيناه يشدد النكير على من يشدد على الناس ولا يراعى ظروفهم المختلفة كما فعل مع بعض أصحابه الذين كانوا يؤمون الناس ويطيلون فى الصلاة، طولاً إشتكى منه بعض مأموميهم. فقد أنكر على معاذ إبن جبل تطويله وقال له : « أفتان أنت يامعاذ ؟ أفتان أنت يامعاذ ؟ أفتان أنت يامعاذ .

وعن أبى مسعود الأنصارى:أن رجلاً قال : والله يارسول الله، إنى لاتأخر عن صلاة الغداة - الصبح - من أجل فلان مما يطيل بنا فما رأيت رسول الله - ﷺ - فى موعظة أشد غضباً منه يومئذ ثم قال : « إن منكم منفرين ، فأيكم صلى بالناس فليتجوز - يخفف - فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » (٣) .

وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ قال : «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبة، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشئ من الدلجة » (٤) .

---

(١) متفق عليه كما فى اللؤلؤ والمرجان صـ .
(٢) متفق عليه المصدر نفسه صـ ١١٣١
(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان ، ص ٨٨٥ .
(٤) رواه البخارى والنسائى ، انظر : صحيح الجامع الصغير ص : ١٦١١ .

ثانيا ـ الإعداد الثقافى :

لن يستطيع الخطيب أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل إلا إذا ألم بأهم الجوانب الثقافية وخاصة الثقافة الاسلامية .

١ ـ **الثقافة الإسلامية :** وهى الثقافة التى محورها الإسلام ، بمصادره وأصوله وعلومه المتعلقة بهذة الأصول المنبثقة عنه، فالخطيب الداعية الذى يدعو إلى الإسلام لابد أن يعرف ما الإسلام الذى يدعو إليه الناس ، ولابد أن تكون هذه المعرفة يقينية عميقة لاسطحية مضطربة. ولهذا كان لابد أن تكون هذه المعرفة عن الإسلام من مصادره الأصلية وينابيعه المصفاة بعيداً عن تحريف الضالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين،لأن ثقافتنا لها خصائص تميزها عن غيرها من الثقافات ، من ذلك .

أ ـ خصيصة الربانية :

لأنها ثقافتنا جاءتنا عن طريق الوحى الشريف وامتزجت بالإيمان عامة ، والتوحيد خاصة ، وهذه الخصيصة امتزجت بجوانبها كلها ، وجرت فيها مجرى الدم فى الشعيرات، فى شعرها ونثرها ، فى أدبها وعلمها ، وفلسفتها ، فى كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم، فيما يزين المساجد والمنازل .

ب ـ خصيصة الأخلاقية :

ثقافتنا الاسلامية تقوم على العنصر الأخلاقى الذى ربط بين الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحررها من غلو الجاهلية، وجعل للأخلاق مكاناً عالياً ، فقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (١) .

ونّدد بالعلم الذى لايثمر خلقاً ولاسلوكاً حسناً ، وجعل العالم غير العامل أول الناس عذاباً يوم القيامة، وفصل آداباً للمعلم والمتعلم والقارئ والسامع، والباحث والمناظر والمجادل ، وآداباً لكل شئ فى الحياة .

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزأة الأخلاق ، فلا يوجد لدينا أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخلاق لمعاملة غير المسلمين ، فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للجميع، والحرام حرام للجميع، لا كما يوجد فى توراة اليهود المحرفة .

كما لاتعترف ثقافتنا بالمبدأ اللأخلاقى الذى قال به كبار الفلاسفة وهو أن الغايه تبرر الوسيلة .

جـ- خصيصة الإنسانية :

من خصائص ثقافتنا التى يجب أن يحيط بها الخطيب أنها إنسانية فلحمتها وسداها إحترام الإنسان، ورعاية فطرة الإنسان ، وكرامة الإنسان، وحقوق الإنسان ، فهى تقوم على اعتبار أن الإنسان مخلوق مكرم ، وأن الله جعله خليفة فى الأرض ، وأنه تعالى سخر له مافى السموات والأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

وهى تقوم أيضاً على تكريم الانسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن جنسه ، أولونه، أو لغته، أو موطنه ، أو طبقته، أو دينه ، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته، ومن المواقف الرائعة مارواه الإمام البخارى عن النبى ﷺ أنه مرت عليه جنازة يهودى وهو جالس فقام لها واقفاً فقيل له : انها جنازة يهودى؟ فقال : « أليست نفساً ؟ » (١) .

د - خصيصة العالمية

من الخصائص التى تميزت بها ثقافتنا العالمية ولهذا عملت على تقريب الفوارق بين بنى الإنسان ، تلك التى فرقت البشر قديماً وحديثاً ، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم ، بيض وسود أغنياء وفقراء ، ملوك وسوقة ، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، إنها ثقافة مفتوحة لكل الجماعات البشرية ، غير مغلقة على نفسها ولامتعصبة ضد غيرها » (١) .

هـ - خصيصة التسامح

من الخصائص التى يحتاج إلى فهمها الخطيب الدارس خصيصة التسامح، لأن الإختلاف بين البشر واقع بمشيئة الله تعالى، مرتبط بحكمته ، ولا يملك أحد أن يرد مشيئته أو يغير سننه فى الكون، قال تعالى :﴿ ولو شاء رَبُّكَ لجعل النَّاس أُمَّةً واحِدَةً ولا يزالُونَ مُخْتَلفينَ (١١٨) إلاَّ من رَّحِم ربُّك ولذلك خَلَقهُمْ ﴾ (٢) .

ثقافة متسامحة لأن حساب من ضل أو انحرف، إنما هو إلى الله يوم القيام، وليس إلى الناس اليوم، وفى هذا يقول الله لرسوله فى شأن المخالفين : ﴿ فلذلك فادْعُ واسْتَقِمْ كما أُمرتَ ولا تَتَّبِعْ أَهْواءهُمْ وقُلْ آمنتُ بما أنزل الله من كتاب وأُمرْتُ لأَعْدلَ بيْنَكُمُ اللَّهُ ربُّنا وربُّكُمْ لنا أعْمالُنا ولَكُمْ أعْمالُكُمْ لا حُجَةَ بيننا وبيْنَكُمُ اللَّهُ يجْمعُ بيْننا وإليْه الْمصيرُ ﴾ (٣) .

ولهذا وسعت الثقافة الإسلامية فى رحابها الفسيحة الأديان المختلفة ،

---

(١) د / يوسف القرضاوى : ثقافتنا بين الانفتاح والأنغلاق ص ٢٤ ، ٢٥ بتصرف

(٢) سورة هود : الآية رقم : ١١٨ ، ١١٩

(٣) سورة الشورى : الآية رقم ١٥

والأجناس المختلفة ، والألوان المختلفة ، واللغات المختلفة ، ولم تضيق بدين ولا عرق ولا لون ولا لسان .

و- خصيصة التنوع

من الأمورالتى يحتاج اليها الخطيب فى ثقافته الإسلامية العلم بخصيصة التنوع فثقافتنا ليست مجرد ثقافة دينية لاهويته، كما يتصور البعض إنما هى ثقافة واسعة متنوعة فيها الدين بفروعه المتعددة واللغة والأدب والفلسفة، فيها مدرسة الرأى التى يمثلها فقه أبى حنيفة ، ومدرسة الأثر التى يمثلها فقه الإمام مالك ، فيها أصول الشافعى وكلام الأشعرى ورواية البخارى وتفسير الطبرى ، وأدب الجاحظ ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه ، وبلاغة عبد القاهر ، وطب ابن سينا ، وشعر المتنبى ، وبصريات ابن الهيثم، ورياضيات البيرونى . فيها ابن حنبل من العراق ، وابن تيمية من الشام ، وابن طفيل من الأندلس ، وابن أبى زيد من تونس ، وابن العربى من المغرب، وابن حجر من مصر ، وابن الوزير من اليمن، والشيرازى من إيران ، والزمخشرى من خوارزم ، والدهلوى من الهند .

إن ثقافتنا متنوعة، والذى يجب أن نعول عليه فى التثقيف والتوعية وفى التعليم والتربية هى الثقافة المعتدله المعبرة عن رسالة الأمة وعن هويتها ومقوماتها وخصائصها الذاتية .

ز- خصيصة التوازن

تتميز ثقافة الخطيب الداعية بخصيصة التوازن التى تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط بدون إفراط أو تفريط ، نجد هذا التوازن واضحاً بين العقل والوحى ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين النص والإجتهاد ، بين استلهام الماضى والتطلع إلى المستقبل » (١) .

---

(١) الدكتور : يوسف القرضاوى : ثقافه داعية صـ ٨٨ .

٢ ـ الثقافة التاريخية :

لكي ينجح الخطيب فى دعوته فهو مطالب بالثقافة التاريخية «لأن التاريخ ذاكرة البشرية، وسجل أحداثها، وديوان عبرها والشاهد العدل لها أو عليها . »

والتاريخ يوسع آفاق الدارس ويطلعه على أحداث وأحوال الأمم وتاريخ الرجال ، وتقلبات الأيام بها وبهم .

وقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله فى المجتمعات بلاجور ولا محاباة ، يقول الاستاذ عمر عبيد حسنة :

«فالتاريخ هو التجسيد العملى للعقيدة ، أو لعالم الأفكار، أو هو التجلى والاستجابة للقيم والأفكار لسائر الأنشطة الإنسانية ..وهو الذاكرة الجمعية المتراكمة للأمة، وسجل حركتها، ومرآة مستقبلها، أو هو المختبر الحقيقى للمبادئ والأفكار ومدى قابليتها للتطبيق ، ونصيبها منه ، وقدرتها على البناء الحضارى ابتداء ومعاودة النهوض الحضارى عندما تتعرض الأمم للإصابة أو السقوط لسبب أو لآخر .

والتاريخ ليس شيئاً منفصلاً من عالم الأفكار .. فالعقيدة هى روح التاريخ ومرتكز تدفقه منها تستمد القيم والموازين التى تقوم الفعل البشرى ، وتبين مواطن الإصابة ، وتحدد أسباب القصور ومواطن التقصير وتصوب مسيرة التاريخ وتحميها ، وتبين سبيل الخروج ومعاودة النهوض .

والتاريخ يمنح البصارة للأجيال فى حاضرها ومستقبلها ويختزل أعماراً فى عمر ، وتجارب فى تجربة ، وهو تراكم معرفى لأجيال فى جيل ، بحيث يقف على أكتاف من سبقوه فيبصر الماضى ويستشرف آفاق المستقبل .

والتاريخ يوقف الإنسان على قمة التجزبة التاريخية، ويتحقق برصيدها، ويمكّن من استقراء قانون الحركة الاجتماعية واكتشافه ، ذلك القانون الذى ينتظم سير الأمم ويبيّن فاعلية السنن فى الأنفس والآفاق ويؤكد إطرادها ويبصر بكيفية التعامل معها، ويحذر من الغفلة عنها والعدول عن تسخيرها، .. وللتاريخ الدور الأساس فى تلمس وسائل النهوض الحضارى ، وتصويب المسيرة البشرية وتحقيق الوقاية .. لقد امتلكت أمة الوحى المخزون التاريخى العام والجذور الضاربة فى عمق الزمان والمكان ، وشكّل القصص القرآنى ، الذى يمثل تاريخ النبوات، ويبصر بتضاريس السقوط والنهوض، إن المساحة التعبيرية فى نصوص الوحى الكريم لأهل مهبط الوحى ومن ثم للمسلمين بشكل عام، ليتحركوا على بينة، ويستشرفوا الماضى بكل عبره، ليصلحوا الواقع ، ويبصروا المستقبل تماماً، ويعيدوا البناء وفق سنن الله، التى لاتحابى أحداً، وتكون عندهم القدرة على الانفتاح والإنتفاع بتجارب الآخرين،التاريخية منها والمعاصرة .

ان الله تعالى لم يرض للمسلمين أن يفهموا التاريخ بصورة مبسطة وإنما أمرهم بالسير فى الأرض والتوغل فى التاريخ العام والتزود بالقوانين الإجتماعية (١) . قال تعالى :﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيانٌ للنّاس وهدى وموعظةٌ للمتقين ﴾ (٢) .

إن السيرة النبوية رغم أنها حلقة في تاريخ الأمة المسلمة إلا أنها حلقة متميزة، لأنها تشكلت على عين الوحى وحركة المعصوم (ﷺ) وبيانه، من

(١) انظر : الاستاذ عمر عبيد حسنه : الوراثه الحضارية ص ٨٥ ، ٨٦ بتصرف .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٧ ، ١٣٨ .

خلال تأييد الوحى وتسديده، وغطت جميع المساحات التاريخية والإنسانية بما فى ذلك فترة الدعوة والمجتمع والدولة ، والسرية والعلنية، والضعف والقوة والتمكين والنصر، والهزيمة وبناء المجتمع والمواجهة والحوار

وخلاصة القول:إن التاريخ بيان، ومعرفة وعلم، واهتداء إلى السنن الفاعلة فى الحياة والأحياء وعبرة وموعظة بمن سبق من الأمم ووقاية حضارية من إصابات السقوط .

إن الخطيب لاينجح إلا إذا كان ملماً بهذا التاريخ بطوله وعرضه لأنه يشكل عبرة وعظة ويمثل الأسوة والقدوة وهو المعيار الحقيقى لتحويل الفكر إلى فعل أو العقيدة إلى عمل .

وبهذا تنطلق الأمة مرة ثانية لإيصال الرحمة للعالمين حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها أو كما قال إمام دار الهجرة . الإمام مالك رحمه الله .

والخطيب يحتاج إلى التاريخ لعدة أمور :

١ ـ أنه يوسع آفاقه ويطلعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال وتقلبات الأيام ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله فى المجتمعات « بلا محاباة ولا جور ، كيف ترقى الأمم وتهبط؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟ » (١) .

قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان

---

(١) انظر د / يوسف القرضاوى ثقافة الداعية ص ٨٨ .

يسمعون بها، انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ (١) .

الخطيب الداعية إذا كانت أفكاره التاريخية رحبة استطاع أن يحذر قومه من الأمراض التى تودى بحياة أمته لأن الأمم بشكل عام كالأفراد تنتابها حالات الصحة والمرض والوفاة .. والأسباب التى تؤدى إلى مرض الأمم وتسوقها إلى أجالها تتمثل فى اقتراف أسباب المرض والهرم والإنتهاء، وأسباب المرض يمكن التدخل فيها إيجاباً وسلباً بشرط التمييز بين أسباب المرض وأعراضه ومراحلة ، فالأسباب مثلاً تكون فى الغالب فكرية أساسها مافى الأنفس من معتقدات وقيم وثقافات، أما الأعراض فتكون سياسية واقتصادية واجتماعية .. وأما المراحل فتكون سياسية. والخلط بين الأسباب، والأعراض، والمراحل، يسبب الاضطراب والإرتباك فى ميادين التربية والدعوة والمعالجة، فيشتغل المعالجون بالأعراض بدل الأسباب .. أو يخطئون ترتيب الأسباب والمراحل ، أو يخطئون فى استعمال وسائل العلاج وطرائقه » (٢) .

والخطيب الفقيه هو وحده القادر على عملية التنبيه والتحذير حتى لايتضاعف المرض ويصل بالأمة أو المجتمع إلى الهرم والشيخوخة وهو وحده القادر على دحر فقه النزعات القومية التى تؤل أيات الكتاب وتحرفها عن مواضعها لتبرير بعض النظريات المرفوضة عقلاً وطبعاً فى الشرع والتى تحقق سنن الله فى الغضب كما قال تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف .

(٢) انظر د/ ماجد غسان الكيلانى:إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها ص ١١١، ١١٢ بتصرف .

(٣) سورة الصف أية رقم ٥

٢ - إن التاريخ هو أصدق شاهد على مايدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم. فهو مرآة مصقوله تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ونهاية الكفر والفجور، وجزاء الشاكرين لنعمة الله وعقوبة الكافرين بها ، ولهذا عنى القرآن الكريم بذكر قصص السابقين، وتواريخ الغابرين لما فيها من عبر بليغة وعظات حية.

قال تعالى : ﴿ وكمْ أهلَكْنا قَبْلَهم مِن قَرْنٍ هُمْ أشدُّ منْهُم بطْشاً فنقَّبُوا في البْلاد هلْ من مَّحيصٍ (٣٦) إنَّ في ذلكَ لذكْرَىٰ لمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ ألْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهيدٌ ﴾ (١) .

وكما قال سبحانه : ﴿ فتلْكَ بيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بما ظَلَمُوا إنَّ في ذلك لآيَةً لقَوْمٍ يعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ولذلك يركز الخطيب على أن التمكين لن يكون فى الأرض للكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذين كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مشارقَ الأَرْضِ ومغاربها الَّتي بَارَكْنَا فيهَا ﴾ (٣) لأن الله لن يقبل من الأعمال إلا ما كانَ متوافقاً مع سننه وشرعة :قال تعالى :﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ماعملوا ﴾ (٤).

٣ - أن التاريخ كثيراً مايعين على فهم الواقع الماثل ، ولاسيما إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع ، وهذا ما جعل العرب قديماً يقولون ما أشبه الليلة بالبارحة ، وجعل الغربيين يقولون التاريخ يعيد نفسه . بل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حين أشار إلى وحدة التصرفات أو تشابه

---

(١) سورة ق : ٣٧ .
(٢) سورة النمل ٥٢ .
(٣) سورة الأعراف : ١٣٧ .
(٤) سورة النحل

الأقوال عند تشابه البواعث » (١) وذلك فى مثل قوله عن المشركين وطلبهم الآيات الكونية من رسول الله كقولهم : ﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ (٢) . ﴿ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) وكقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (٤) أى أنهم اتحدوا فى الإستكبار والطغيان فاتحد ماصدر عنهم من زور وبهتان .

إن فهم الخطيب للتاريخ يعينه على فهم واقع الأحداث فبعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار فمن لم يعرف أغوار ماضيها لن يدرك أسرار حاضرها . فالصدام بين الإسلام والمسيحية فى هذا العصر لايعرف حق المعرفة إلا إذا ألم الانسان بدوافع صراع الحروب الصليبية ، وما صحبها من دمار وما خلفته من آثار ، بل لايعرف إلا من بداية الصراع منذ موقعة اليرموك وفتوحات الشام ومصر وأفريقية فى عهد الراشدين . بل منذ معركة مؤته وغزوة بقول فى عهد الرسول (ﷺ) .

بل إن الواقع التاريخى يساعد الخطيب الداعية على فهم فقه الأحكام الشرعية المحكومة بالواقع لأن « المسلم لايتحرك فى فراغ وإنما فى واقع . وهذا الواقع غالباً مايكون مليئاً بالعقبات . وبعضها قد لايقهر . ومن هنا يصبح التكييف معه أمراً ضرورياً بل قد يكون مفروضاً أحياناً . فيقدم ما يتطلبه الظرف ويؤخر مالا حاجة إليه .. فقد ترك النبى (ﷺ) إعادة بناء

---

(١) د / يوسف القرضاوى : ثقافة الداعية ص ٨٩ .

(٢) سورة البقرة أية ١١٨ .

(٣) سورة البقرة أية ١١٨

(٤) سورة الذاريات أية ٥٢

الكعبة على قواعد ابراهيم ، مخافة إثارة فتنة عند قوم حديثى عهد بكفر لم يتمكن الإسلام من نفوسهم . كما امتنع عن قتل المنافقين تفادياً للإساءة التى يمكن أن تلحق بالإسلام .

والذى نريد أن نقوله أن العمل الإسلامى اليوم يواجه واقعاً غير إسلامى فى كثير من جوانبه . بل رافضاً ومحارباً له أحياناً، مما يحتم على الخطباء والدعاة إلى الله العمل بحكمة وبصيرة وبخطوات ثابتة ورزينة، فلكل عصر طوارئ ومستجدات ومشاكل خاصة تقتضى إعادة النظر فى الاجتهاد والتخطيط » (١) .

تحذيرات للخطباء فى المجال التاريخى

يجب على الخطيب الداعية الذى يطالع التاريخ أن ينتبه إلى عدة أمور

أ - ألا يجعل أكبر همه الإلمام بجزئيات التاريخ وتفصيلاته فهذا أمر كبير لايمكن حصره ، ولو أمكن فالفائدة قليلة .

ب - أن يكون ذا وعى يقظ للوقائع التاريخية التى تخدم موضوعة ، وتعمق فكرته، وتقدم لها الشواهد الحية وخاصة ماجاءت فى القرآن الكريم . أو مالها ارتباط بالحديث أو بعصر الراشدين أو بالقرون الأولى أو بفقه الأحكام التى ترتبط بالواقع (٢) .

فللظروف دور أساس فى تحديد الأولويات وهذا لايتحقق إلا بالمعرفة الدقيقة للبيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يعيش فيها الخطيب الداعية .

---

(١) انظر : الاستاذ محمد الوكيلى : فقه الأولويات . داسة فى الضوابط ص ١٧٥ ، ١٧٦ بتصرف

(٢) د / يوسف القرضاوى : ثقافة الداعية ص ٩٠ .

جـ - أن يعنى الخطيب بسير الرجال ، ومواقف الأبطال وبخاصة العلماء والدعاة ، التى تبرز الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة والشخصية المسلمة السوية ، كما نلمس ذلك فى كتب الطبقات والتراجم والسير ، حيث بذل علماؤنا جهداً مباركاً فى إخراج مؤلفات نفيسة مثل طبقات ابن سعد وطبقات الحنفية والشافعية والأطباء والحكماء ، والنحاة ، وغيرهم .

د - أن يكون محور التاريخ هو الإسلام نفسه ، دعوة ورسالة ، وأثره فى تربية الأجيال وتكوين الأمة المسلمة وإقامة الدولة الإسلامية، وبناء الحضارة.

كما يجب على الخطيب أن يظهر الجاهلية العالمية والعربية التى كان يتردى فيها العالم عامة والعرب خاصة على حقيقتها بلا إفراط أو تفريط . ذلك أن دعاة التغريب والإستشراق والتنصير يريدون أن يلبسوا هذه الجاهلية حسنة ، مضخمين لما كان فيها من حسنات ، متغاضين عما عجت به من مسالب .

وقد طرب لذلك القوميون الذين حرصوا على عرض الجاهلية العربية مبرأة من كل عيب ، بل جعلوا الجاهليات القديمة هى أساس الأسوة والقدوة فنادوا بالجاهلية الفرعونية ، والجاهلية الآشورية ، والبابلية ، والطورانية ، وغير ذلك من جاهليات حكم عليها التاريخ بالتأخر والتخلف فى كل مناحى حياتها .

جـ - الثقافة الواقعية :

من أهم مايلزم الخطيب الداعية التسلح بالثقافة الواقعية ، وهى المستمدة من واقع الحياة الحاضرة، وما يدور فى داخل العالم الإسلامى وفى خارجه، وما يقوم عليه من نظم ، وما يسوده من مذاهب وما يحركه من عوامل وما يجرى فيه من تيارات وما يعانيه من متاعب. وبخاصة العالم الإسلامى بآلامه وآماله وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته وعوامل ضعفه.(١) .

وقبل ذلك بلده الصغير ، وبيئته المحلية ، وما يسودها من أوضاع وتقاليد. وما تقاسيه من صراعات ومشكلات وما يشغل أهلها من قضايا وأفكار .

ومن هنا وجب على الخطيب أن يدرس :

١ - واقع العالم الإسلامى، وذلك بمعرفة أوضاعه الجغرافية والاقتصادية والسياسية، وتوزيع سكانه وأسباب تخلفه وتفرقه، وعوامل تقدمه ووحدته. وإمكانات تكامله اقتصادياً، وتضامنه سياسياً وعسكرياً فضلاً عن تقاربه اجتماعياً وثقافياً . ولابد من معرفة مشكلات الأقليات والأكثريات المسلمة المضطهدة - كما يجب على الخطيب أن يدرس واقع القوى العالمية المعادية للإسلام وإمكاناتها المادية والبشرية والعلمية

٢ - على الخطيب أن يدرس الأديان والمذاهب السياسية المعاصرة المعادية للإسلام ليرد عليهم من واقع مايعتقدوه حتى يكفوا ألسنتهم عن التجريح والطعن لعقيدة الإسلام وشريعته .

٣ - على الخطيب أن يدرس الحركات الإسلامية المعاصرة ، وطرق

---

(١) انظر : ثقافة الداعية صـ ١١٩ .

نماذج من الخطب النبوية :

أرسل الله رسوله ﷺ بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلمة الحكمة وفصل الخطاب ، فكان أفصح الخلق لسانا ، وأبينهم بيانا ، وأوضحهم عبارة وأفواهم حجة ، كلامه أقل الكلام حروفا ، وأكثره معنى ، جُلَّ عن الصنعة ، ونُزِّهَ عن التكليف . المطلع على خطبه (ﷺ) يلمس هذا فى كل خطبه .

١ - فى أول خطبة دعابها قومه بمكة قال :« إن الرائد لايكذب أهله، والله، لو كذبت الناس، جميعا ماكذبتكم، ولو غررت الناس جميع، ماغررتكم . والله الذى لا إله إلا هو ، إنى لرسول الله إليكم ، خاصة وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعلمون، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا » (١) .

مضمون هذه الخطبة :-

الناظر فى هذه الخطبة يجد أنها تضمنت عدة أمور منها :

١ - تأكيد دعوته ﷺ . بأن الرائد لايكذب - أيًا كان - لايكذب وهو نفسه معروف بالصدق والأمانة ، فقد اجتمع له مايزيد صدقه تأكيدا ، ثم أكد .

ثانيا : بأنه لو جاز أن يكذب فإنه لايجوز له أن يكذب عليهم ، لأنهم أهله وعشيرته .

---

(١) انظر السيره الحلبية جـ ١ ص ٢٧٢ ، والكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ٢٧

٢ - عرض حقائق دعوته ﷺ بوضوح كامل .

٣ - تأكيد القول من خلال القسم وتكرير معنى المقطع الأول .

٤ - بيان الرؤى الفكرية الصادقة لدعوته ﷺ .

٥ - الإستدلال على عدة عقائد يقينية هى : الموت ، البعث بعد الموت ، الحساب ، الجنة والنار .

٦ - استعمال الصورة التصويرية التمثيلية بأمرين مماثلين لهما ، فقد مثل الموت بالنوم . ومثل البعث بعد الموت بالإيقاظ من النوم . وهذا مايسمى بقياس الغائب على المشاهد فى الأسلوب الخطابى .

٢ - النموذج الآخر : فى خطبة أخرى للرسول ﷺ يقول : « إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . إن أحسن الهدى كتاب الله ، قد أفلح من زيّنه الله فى قلبه وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس .. إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من قلوبكم ، ولاتملّوا كلام الله وذكره ... فاعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله تعالى صالح ماتقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (١) .

---

(١) انظر : مسند الامام أحمد جـ ١ ص ٣٠٢ ، وانظر صبح الأعشى جـ ١ صـ ٢٩٣ .

تأملات فى هذه الخطبة : الناظر فى هذه الخطبة يجد أنها تضمنت الأمور الآتية : ـ

١ ـ أنها بدأت بالحمد لله والثناء عليه، وقد كانت هذه عادته ﷺ فى كل خطبه . حتى فى خطب العيد والإستسقاء والخسوف والكسوف .

٢ ـ استخدامه ﷺ لأسلوبى الترغيب والترهيب فى الدعوة إلى الله تعالى، نلحظ هذا فى قوله ﷺ: «إن أحسن الهدى كتاب الله » « إنه أحسن الحديث وأبلغه » « واتقوه حق تقاته» «تحابوا بروح الله بينكم » « أحبوا من أحب الله » فهذا أسلوب ترغيبى . ونلحظه أيضاً فى هذه التعبيرات :لاتملوّا كلام الله وذكره، إن الله يغضب أن ينكث عهده . وهذا أسلوب ترهيبى وهكذا اعتمد الرسول ﷺ الأسلوبين، وقد بينّا سابقاً أن أسلوب الترغيب والترهيب من مكونات الخطاب الدعوى .

٣ ـ أنه ﷺ أكد على أن القرآن الكريم هو أحسن الهدى، وأحسن الحديث وأبلغه، ومن ثم فهو المقوم الأول للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً . وهو الذى يشفى علل الناس ويصلح بالهم، ويدحض نزعات الإلحاد ويحبط كيد الشيطان .

٤ ـ أنه ﷺ استعمل لفظتى « زينه»، «اختاره»، والتزيين والإختيار مدارهما الإدراك أو التصديق القلبى والإدراك العقلى، وهو بهذا استعمل أسلوبى الإستعمالة العقلية والوجدانية .

٣ ـ خطبة أخرى له ﷺ :

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم .إن المسلم بين مخافتين :بين أجل قد مضى لايدرى ما الله فاعل

فيه وأجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت . فو الذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستعتب . وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (١) .

المتأمل فى هذه الخطبة يجد أنه (ﷺ) يلفت أنظار أمته إلى سرعة انقضاء الزمن، وسرعه اغتنام الفرص حتى لاتصاب الأمة بالعطل، ولكن تجنب نفسها آفات الفراغ « فالساعة الواحدة يقرأ فيها من القرآن الكريم ماتنزل الوحى به فى بضع سنين. ويقرأ فيها من حديث رسول الله (ﷺ) ماتردد على الآذان فى مثل هذا الطويل » (٢) فهذه الخطبة تدفع المستمع لها إلى سرعة التزود من العمل النافع الصالح الذى يصلح دنياه وأخراه .

٤ ـ خطبة أخرى له (ﷺ) :

« أيها الناس :كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » (٣) .

---

(١) تفسير لقرطبى جـ ١٨ صـ ١١٦ .
(٢) أنظر : فضيلة الاستاذ / محمد الغزالى : مع الله صـ ٣١٦ .
(٣) راجع : صبحى الأعشى جـ صـ ٢١٢ .

تأملات في هذه الخطبة :

١ - المتأمل في هذه الخطبة الشريفة يجد أنها تفوح بالحكمة فقد ذكَّر (ﷺ) أصحابه بالموت ، فالموت باعث على التوبة والعمل الصالح ، والإنسان العاقل هو الذى ينظر . كم شيع من الأقارب والأحباب، وكم دفن من الزملاء والأصحاب، ويستحضر صور هؤلاء وكيف كانوا فى الحياة آمنين، ثم فجأهم الموت ، ويتذكر كيف كان إقبال الواحد منهم على الدنيا ، وحرصه عليها ، ومزاحمته فيها ، والإستمتاع بملذاتها ، وكيف كان نشاطه وسعيه ، وأمله فى العيش والبقاء ، ونسيانه للموت والآخرة حتى جاءه الموت على غير موعد . ومن كان هذا حاله فإنه لن يستبعد نفسه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يذهبون ولايرجعون .

٢ - بينَّ لهم ﷺ فى خطبته أنَّ الإنسان إذا مات وأصبح تحت الثرى جثة هامدة لم ينفعه ماله ولا ولده ولا قريبه أو صديقه، وأن ماجمعه من مال يترك لغيره يتمتع به ويذهب وحده كما قال تعالى :﴿ ولقد جئتمونا فُرادىٰ كما خلقناكُمْ أوَّل مرَّةٍ وتركْتُم مَّا خوَّلْنَاكُمْ وراء ظُهُورِكُمْ ﴾ (١) .

٣ - لفت أنظار أصحابه إلى الإنشغال بعيوبهم ،لأن إنشغال الإنسان بعيوب الآخرين يعميه ويصمه عن عيوب نفسه، فيرى هفوات الآخرين كبائر، ويرى كبائره هفوات .

٤ - حث أصحابه إلى فضل إنفاق المال الطيب ، لأن إنفاق المال

---

(١) سورة الأنعام آية رقم : ٩٤

يبعد الإنسان عن البخل والشح والطمع ، ويذكر المسلم ، بضرورة شكر الله تعالى وحمده على نعمة الاكتساب والعمل ، ويذكره بأنه عضو فى مجتمع ينبغي أن يكون متعاونا متساندا متآزرا .

٥ ـ كما لفت انظارهم إلى فضل العلم والفقه ، وفضل أهله ، فالعلماء هم ورثة الأنبياء يقوموا بمهمتهم فى إصلاح الخلق ، ويؤدوا عنهم رسالتهم فى إبلاغ الامم .

٥ـ خطبة الوداع :

في حجة الوداع خطب رسول الله ﷺ خطبة جامعة قال فيها :«إن الحمد لله نحمده ونستغفرة، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلاها هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله، واستفتح بالذى هو خير، أما بعد، أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعه ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة الحارث بن عبد المطلب . وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود ، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر . وفيه مئة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس :إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم .أيها الناس : إنما النسئ(١) . زيادة في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً

(١) النسئ : كان العرب إذا دخل الشهر الحرام الذي لايجوز فيه القتال ، وهم في حرب لايقطعون حربهم ، بل يحلون الشهر ويستمرون في حربهم ثم يحرمون شهراً آخر بعده . وقد ترتب عليه اضطراب الشهور ووقوعها في غير موقعها.

ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا (١) عدة ماحرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم : ثلاث متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت اللهم اشهد .

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً عليهن ألا يوطئن فُرُشَكم غيركم ولايدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن (٢) .

وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غيرمبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوانى لايملكن لانفسهن شيئاً أخذ تموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيراً، أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لإمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم اعناق بعض، فإنى قد تركت فيكم مالو أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد .

أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولايجوز وصية فى أكثر من

---

(١) ليواطئوا : ليوافقوا

(٢) العضل : هو المنع الشديد

الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . » (١) .

هذه الخطبة من الخطب الجامعة لأنها حوت تعاليم كثيرة ، وهى آخر خطبة جامعة له ﷺ، وهى صارمة تبدو صرامتها فى أنه طبقها على ذويه قبل أن يطبقها على الآخرين ، فبدأ بوضع ربا العباس عمه ، وقد ضاع على العباس مال كثير ، ولكن حَسْبه أن كان له رأس مال ، كما وضع دم ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحارث ، وبين أن فى القتل العمد القصاص فالنفس بالنفس ، والقتل الخطأ فيه الدية ، وأنه ضمن لأمته أن الشيطان لن يعبد فى أرض الدعوة إلى يوم القيامة .

(١) راجع : البيان والتبيين جـ٢ ص ١٥ ، وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٠ ، وتاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٦٨ .

تأملات فى هذه الخطبة

١ - المتأمل فى هذه الخطبة يجد أن النبى ﷺ بين طبيعة دعوته ، فقد بين طبيعة مصدرها، وطبيعة موضوعها ، وطبيعة أهدافها ومقاصدها .

٢ - ركـــز ﷺ فى هذه الخطبة على كثير من القضايا الكلية وخاصة مقاصد الدين، أو ما يعبر عنه بالضروريات الخمس ، وهى :الدين ، النفس ، والنسل ، والمال ، والعقل

٣ - أنه ﷺ راعى غرائز النفس الإنسانية حتى لا تنحرف عن التعادلية أو الإتدان ، وكان حرصه على ضبط غرائز النفس الإنسانية قاعدة من قواعد منهجه فى الدعوة إلى الله تعالى فى كثير من خطبه الشريفه ، والمتأمل فى هذه الخطبه الشريفه يجد من أوجه الاستدلال التى توصل لهذه القاعدة المنهجه عدة أمور : منها مايلى :-

أ - اعلاء سلطان التقوى فوق سلطان الغرائز والشهوات .

ب - اعلاء قيمة العمل الصالح على العمل النزوعى الذى ينزع إلى الشر .

جـ - احترام المال الحلال وإهدار قيمة المال الحرام .

د - ضبط غريزة الأنتقام فى نفس الانسان بالقصاص، أى المثلية ، وليس بالمجاوزة فى الحد

هـ - ضرورة التخلص من النزعات القَبَلية التى توصل لغريزة الشر فى نفس الانسان ، وتمرق به من ضوابط الدين وقيوده

و - تحريم التحايل لإرواء الغرائز واثراء روافدها وتقوية تأثيرها على النفس الانسانية .

ز - تاصيل الخير فى نفس الانسان وصيانته ، وحمايته من ثورة الغرائز

ح - ضرورة احداث تغيير عام فى تركيبة النفس الانسانية التى ارتضت الاسلام ديناً، تغييراً يتمحض للهدم والبناء :هدم ماهو سئ وفاسد، وبناء ماهو صالح وطيب » (١) .

ط - التحذير من عادات الجاهلية كافة فكما أبعدهم عن ربى الجاهلية والدم ، نراه هنا يحذرهم من التشبه بالجاهليين الذين كانوا إذا جاء شهر حرام ؛ وهم محاربون، أحلوه ، وحرموا مكانه شهراً آخر ، فيحلون المحرم ، ويحرمون صفراً ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعاً الأول. وهكذا حتى استدار التحريم على أشهر السنة كلها .

ى - بين ﷺ فضل النساء ومالهن من حقوق ، وهو فى ذلك أيضاً يخالف ماكان عليه الجاهليون من تحقير لهن وإستبداد بهن، دون أن يكون لهن حرمة. حيث أن بعض العرب كانوا يئدونهن خوفاً من عارهن ، ولهذا استدل حديثه عنهن بقوله : « إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق .

---

(١) انظر : خصائص خطب النبى للدكتور احمد اسماعيل ص ٢٧٧ .

الخصائص النفسية لخطب النبى ﷺ :

لخطب النبى ﷺ خصائص نفسية عالية أثرت فى عقلية المسلمين ونفوسهم، وكان ذلك بفضل القرآن الكريم ، وبفضل ما آتاه الله من جوامع الكلم ، وبهذا كانت خطبه ﷺ، تختلف فى أسلوبها عن الخطابة الجاهلية فى كل شئ بشدة لحمتها وتيسرها للجدل والبراهين والتعليم ولهذا تميزت بهذه الخصائص :

١ ـ سمو النزعة الجمالية : تتصف خطب النبى ﷺ فى بعض مطالعها بمسحة جمالية متفوقة مثل قوله : « لا إله إلا الله وحده ، لاشريك له، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

٢ ـ تجدد الموضوعات والمعانى المتلاحقة فى خطبة ﷺ يجد أن كل مقطع أو جملة من خطبه تقتضى بحثاً لاكفاية فيه عن النفس والروح والانسان والحياة، وما وراءها، وكأن كل مقطع له عطاء خاص، وكأن الخطبة كلها مقطع واحد .

٣ ـ اللغة التشريعية : فى خطب النبى ﷺ لغة تشريعية ، كان يؤكد عليها بتكرير اللفظ الواحد فى سبيل الإيضاح والتأكيد، كما فى خطبة الوداع ، وبذلك يدنو الأسلوب الخطابى من الاسلوب العلمى .

٤ ـ استنانه لسنة المقدمات والنهايات الخطابية:استن النبى ﷺ فى خطبة سنة المقدمات التى تستهل بالحمد لله والاستغفار والشكر . وقد لحققت هذه المقدمات الخطب الاسلامية، ولزمتها حتى أصبحت تلك المقدمات سنة عمل بها الخلفاء والقادة والأمراء، وولاة أمر المسلمين ومن تبعهم. وكذلك كان النبى ﷺ ينهى كلامه بعبارات تدل على ذلك، مثل السلام عليكم ورحمة الله، أو الله أكبر ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

٥ - التقريع واللوم   كان النبى ﷺ يغضب حين يرى حدود الله تنتهك فيتجه إلى الذين يعصون أمر ربهم ، وإلى الذين يقولون مالا يعلمون فيلوم ويؤنب ويخوف من عاقبة الظلم وسوء المصير

٦ - هديه فى خطبه:خطب ﷺ على المنبر وعلى الأرض وعلى البعير وعلى الناقة ، وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول :صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول :أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة. وكان اذا صعد على المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال :السلام عليكم ورحمه الله .

الفصل الثالث

الخطابة فى زمن الخلفاء الراشدين :

توفى رسول الله ﷺ وترك للمسلمين ما إن تمسكوا به لايضرهم شئ، كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وسنته ﷺ، وأصبح أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو أول الخلفاء الراشدين لينهض بالصحابة من كبوة أصابتهم إثر وفاة النبى ﷺ ويقودهم إلى حماية البيضة. فيضرب المرتدين ، وإخوانهم الذين نافقوا فى الدين ، ويتم فتح بلاد المسلمين بإنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه .

أنموذج : بعد أن تمت البيعة لأبى بكر رضي الله عنه خطب الناس الخطبة التى عرفت بخطبة البيعة وفيها: حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة ، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولاتشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » (١) .

فى هذه الخطبة السياسية يبدأ أبو بكر رضى الله تعالى عنه بحمد الله والثناء عليه ، ويثنى بالصلاة على النبى ﷺ .

ثم يبين للناس أنه تولى الخلافة وليس بأجودهم بها ، بل هو من عامتهم . يطلب عونه إن أحسن وتقويمه إن أساء ، ثم يبين أن صدق الراعى والرعية

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ص ٦٦٠ .

أمانة فى أعناق الجميع ، وأن الكذب خيانة ، وأنه ملزم بإعادة حق الضعيف المظلوم من القوى الظالم الذى ظلمه واعتدى عليه ، ونهى عن ترك الجهاد ، وبين أن من تركه سيضرب بالإهانة والذل ، وبين أخيراً خطر الفاحشة ، وخطر اشاعتها فى الناس ، وأنها تسبب البلاء ، بكل أشكاله ومظاهره .

والناظر فى هذه الخطبة من ناحية الأسلوب يجد فيها الايجاز على حين أنها تضمنت الكثير من المعانى ، وتضمنت المنهج القويم فى السيارة الحكيمة ، وفيها بعض المحسنات اللفظيه كالمقابلة بين الصدق والأمانه ، والكذب والخيانة ، والطباق بين القصى والضعيف 'عصيت وأطعت ، وسجع فى أمانة وخيانه . والألفاظ واضحة ليس فيها غريب ولامستهجن .

الخصائص العامة لخطب أبو بكر :

١ ـ الحمد والشكر: يستهل أبو بكر رضي الله عنه خطبه بالحمد والشكر وهو بهذا يهتدى بهدى النبى ﷺ، مثال ذلك قوله فى احدى خطبه « الحمد لله أحمده واستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه واستهدى الله والهدى ، وأعوذ به من الضلاله والردى ، من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حيٌ لايموت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شئ قدير » (١) .

٢ ـ الاكثار من صيغتى الأمر والنهى كتعبير عن الإمامة والإرادة النافذه مثل قوله : « الزموا المساجد واستشيروا القرآن والزموا الجماعة ، وعدّوا أنفسكم من الموت، وما أشكل عليكم فردّوا علمه إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيراً » (٢) .

---

(١) انظر : العقد الفريد جـ ٢ ص ١٣١ .

(٢) انظر : عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٣٣ .

٣ ـ التدرج المنطقي : من خصائص خطب الصديق ﷺ التدرج المنطقي حيث كان يخلص من فكرة إلى أخرى ، كما تتولد النتيجة من السبب ، مثال ذلك قوله : « من يكذب يفجر ، ومن يفجر يهلك » وقوله « ألا إن لكل كلام جوامع فمن يلقها فهي حسبه . ألا إنه لاثنين لأحد لا إيمان له ولا أجر لمن لاحسبة له ولا عمل لمن لانية له » (١) .

٤ ـ الاستشهاد بالآيات القرآنية: مثل استشهاده بقوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾، فأطيعوا الله ورسوله فإن قال عز وجل : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ (٢) .

٥ ـ انهاء الخطبة بذكر النبي ﷺ والترحم عليه :فكما كان النبي ﷺ ينهي خطبه بالسلام والترحم فإن أبا بكر كان ينهي خطبه بالترحم على النبي بمثل : « اللهم صلي على محمد عبدك ورسولك أفضل ماصليت على أحد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه ، وألحقنا به ، واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه » (٣) .

وجملة القول في خطب أبي بكر أنه استكمل فيها قواعد الإسلام ، وأفصح عن تعاليمه وحث على اتباعها ، لايهادن في الحق ولايلين لمأرب مقتفياً على نهج فكري قلّما تتراى فيه الانفعالات والأدوات البلاغية المتعددة الإيقاع .

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٣٠ .

(٢) انظر : العقد الفريد . المقدمه ص ١٣١ ، وانظر .

(٣) فن الخطابة لإيليا حاوي ص ٩٧ ، ٩٨ .

الخطيب الناجح هو الذي يستطيع أن يستميل المخاطبين في أي أمر من الأمور الحياتية والدينية . والعلماء يتحدثون عن ثلاثة أنواع من الاستمالات التي يجب أن تشتمل عليها الخطبة الناجحة وهي :

الاستمالة العاطفية و الاستمالة العقلانية و استمالة التخويف والناظر في سيرة النبي (ﷺ) ، وما تلقاه أصحابه منه يجد أنهم نجحوا نجاحاً باهراً في استمالة الآخر وإقناعه . نجد ذلك واضحاً في توجه الصحابة إلى أرض الحبشة عندما أشار عليهم النبي (ﷺ) بذلك وقال لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه " [1]

وفعلاً خرجوا مهاجرين إليها يقول ابن هشام :" فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً غير النساء "[2] وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعثه (ﷺ)[3] . فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله(ﷺ) " قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام -جـ١ ص٣١٥ - تحقيق د/ محمد فهمي السرجاني - ط : المكتبة التوفيقية .
(٢) المصدر السابق صـ ٣٢٣
(٣) خاتم النبيين -للإمام : محمد أبو زهرة -طـ -ص ٤٩٠ - ط : قطر دار إحياء التراث الإسلامي .

قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا منهم رجلين إلى النجاشي ليردهم عليهم ، فيفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من الأرض التي اطمأنوا بها ، وآمنوا فيها ، فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشي ليغروه بها .

تقول أم المؤمنين أم سلمة :" لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار "النجاشي " فكان أميناً على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة .. فجمعوا أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما ادفعا إلى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .. فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار " [1] .

وتقدم عمرو بن العاص ليلقي خطبته أمام النجاشي ملك الحبشة فقال :" أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أبصر بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم .. فقال البطارقة ــ الذين

---

(١) سيرة ابن هشام ــ جـ١ ــ ص : ٣٢٦

حركتهم الهدايا – صدق أيها الملك قومهم أعلم بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ليردوهم إلى بلادهم " [1] .

خطبة جعفر بن أبي طالب :

بعد أن أحس النجاشي بالحملة الباطلة ضد المسلمين ، خاصة وأنه لم يقتنع بخطبة عمرو بن العاص ورفيقه رد عليهما رداً حاسماً فقال :" لا أسلمهم إليكم حتى أدعوهم فاسألهم عما يقولون " ، وأرسل إليهم النجاشي فجاءوا أمامه ، فقال جعفر بن أبي طالب لصحبه :" أترضون أن أتقدمكم وأكون خطيبكم اليوم ؟ قالوا : بلى. فدخل وسلم على النجاشي ، ولم يسجد له .. فقال النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من أتباعي ؟ فقام جعفر وقال: أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله ، نوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بالصدق والأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والزنا ، والفواحش ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا

---

(١) المصدر السابق ,ص:٣٢٧

نشرك به شيئاً ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، وشقوا علينا ، فخرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

فقاطعه عمرو بن العاص وقال : إنهم يخالفونك في عيسى وأمه .

فقال النجاشي : ما تقولون في عيسى وأمه ؟ فقال جعفر : نقول فيه ما قاله الله في كتابه : إنه هو كلمة الله وروحه ، ألقاها إلى العذراء البتول ، وتلى عليه قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَن صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا *فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (١) .

وما كاد ينتهي جعفر من تلاوته إلى هذا الحد ، حتى بكى النجاشي وبكى من حوله من الأساقفة ، وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا اليسوع المسيح . وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة ، مرحباً بكم ، وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي نجده في الإنجيل ، وأنه الذي بشر به عيسى ، انزلوا حيث شئتم ، فوالله ! لولا ما أنا فيه من الملك ، لأتيته ، حتى أكون أحمل نعليه ، وأوضئه ، وآمر بهديه الآخرين ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ، (قالها ثلاثاً) ، ومعنى سيوم : أي الآمنون (٢)

نظرة في البيان الخطابي لجعفر بن أبي طالب :

لقد استخدم سيدنا جعفر -رضي الله عنه - في خطبته أمام النجاشي مؤثرات مختلفة ، وقدم في خطبته حقائق ومبادئ لا ترفض ، وكانت لديه من سرعة البديهة ما جعله يتربع على عقول مستمعيه ، وكان متمتعاً بثقافة تاريخية واجتماعية ونفسية وبيانية ودعوية في وعاء من الكلام الطيب والأسلوب اللين ، وبيان ذلك كما يلي :

(١) سورة مريم الآية رقم : ١٦ - ٣٤ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ١ صـ ٣٢٨ تحقيق الدكتور / محمد فهمي السرجاني - مكتبة التوفيقية .

١ - **الاستمالة العاطفية :** التي تستهدف التأثير على وجدان المتلقى وانفعالاته ، ومخاطبة حواسه . نرى ذلك عندما خاطب النجاشي بقوله : أيها الملك .. وقوله فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا .. وخرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

وفي هذا تعظيم لشأن الملك ، وتحقيق الجانب العاطفي في الدفاع عنه.

٢ - **الاستمالة العقلانية :** وهي تعتمد على مخاطبة عقل المتلقي ، وتقديم الحجج والشواهد المنطقية ، وتفنيد الآراء المضادة بعد مناقشتها وإظهار جوانبها المختلفة .

نرى ذلك في قوله للنجاشي :" كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .. وقوله : حتى بعث الله إلينا رسولاً منا .. دعانا إلى الله ،وأمرنا بالصدق والأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والزنا... .

٣- **أمانة العرض :** الذي يمعن النظر في خطبة جعفر بن أبي طالب يجد أنه كان أميناً في عرض دعوته ، لأن الدعوة القائمة على الباطل ، أو الكذب مصيرها الزوال والاضمحلال نرى ذلك عندما قاطعه عمرو بن العاص وقال : إنهم يخالفونك في عيسى وأمه . فما كان من جعفر إلا أن قال : نقول فيه ما قاله الله في كتابه ، إنه هو كلمة الله وروحه ، ألقاها إلى

العذراء البتول ، فخرج عمرو ورفيقه من عند النجاشي مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقام المسلمون عند الملك ، وفي أرضه خير إقامة ، وخير جار ، في أمن ودعه ، يعملون على نشر دعوتهم على مرأى ومسمع من النجاشي .

٤ - **تقديم الأدلة والبراهين :** الذي ينظر إلى خطبة سيدنا جعفر يجد أنه حدد أسلوبه وعباراته تحديداً دقيقاً ، حيث توقع ما قد يتعرض له من مقاطعة أثناء خطبته ، ولذلك لم يتلعثم ، ولم يتعثر عندما قاطعه عمرو بل قدم الأدلة والبراهين القاطعة في حقيقة عيسى وأمه .

ومن ثم هيمن على قلوب مستمعيه ، وارتفع صوته بآيات الذكر الحكيم التي شنفت الآذان ، وأخذت بمجامع القلوب حتى بكى النجاشي ، وبكى من حوله من الأساقفة ، وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات يسوع المسيح استطاع " جعفر بن أبي طالب " بهذه الخطبة أن يكسب للإسلام أرضاً جديدة في أرض الحبشة وأن يفتح للمسلمين باباً جديداً يصعب على المشركين من أهل مكة أن يغلقوه ، كما استطاع بفضل اتباع أوامر الرسول (ﷺ) الذي أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة أن ينقل الإسلام من المحلية إلى العالمية .

لقد استطاع جعفر أن يقدم خطبته للنجاشي في قالب لفظي رشيق ، بأسلوب يقطر عذوبة ، ويفيض رقة فإن الأمر كما يقول الدكتور عبد الله الشاذلي :" ربما تقع – أي النفس – أحياناً أسيرة العبارة ، وقيد الكلمة

وقد يكسر حدتها لفظ منمق ، أو يُحطم كبريائها أسلوب جذاب " [١] .

فالخطيب يخاطب نفساً لها كثير من الشهوات والأغراض والميول والعواطف . ولها دروب ومسالك بعيدة الأغوار ، عميقة الشكوك ، متعددة الجوانب . ولهذا يلزم أن يتميز الخطيب بمميزات كثيرة تؤهله لأن يكون مؤثراً في الغير . قادراً على أن يملك زمام الأنفس .

ويسيطر عليها سيطرة يستميلها إلا ما يريد ، ويجذبها إلى فكرته ونصيحته .. كما يستطيع بمقدراته المتنوعة أن يوقظ النفس من غفلاتها ، وينتشلها من ذلاتها ووهادها ، ويحييها من رقدتها ، ويبعث فيها حماس الإيمان ، وقوة الإخلاص " (٢) .

---

(١) مدخل إلى الاستدلال القرآني : الدكتور : عبد الله الشاذلي ص. ١١٤ ـ الطبعة الأولى ١٩٨٧م

(٢) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢

الفصل الرابع

كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر ، ونقلوا إلى الناس صورة للسلف الصالح ، أهل السبق والإيمان كابن عباس وأنس بن مالك والتابعين الذين شافهوا كبار الصحابة ونقلوا عنهم . كان هؤلاء رابطة اتصال بين ذلك العصر وما سبقه فكان متصلاً به . وهذه بعض الخطب :

١ـ خطبة الحسن وقد جنح لمصالحة معاوية

" الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة [١] ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردوا على رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله " ثم نزل [٢] .

٢ـ خطبة محمد بن الحنفية في رثاء أخيه :

لما مات الحسن بن على رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين

(١) الغائلة :الشر والفساد والداهية .

(٢) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ـأحمد زكي صفوت جـ٢ . ص١٠ . ط المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان

ومحمد بن الحنفية [١] وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرورقت عيناه ، وقال : " رحمك الله أبا محمد فلئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سبيل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء[٢] ؛ وخلف أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء وعمك جعفر الطيار [٣] في جنة المأوى ، وغذتك أكف الحق ، وربيت في حجر الإسلام ، ورضعت ثدي الإيمان ، فطبت حياً وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ، إنها غير شاكة أن قد خير لك [٤] ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام " [٥]

---

(١) وهو محمد بن علي بن أبي طالب : والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن الجيم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفي سنة ٨١ ،وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ .

(٢)الكساء :هو كساء آل محمد (ﷺ) الذين يضافون إليه ،فيقال :"آل الكساء" وهو النبي (ﷺ) ، وعلي ، وفاطمة،والحسن ،والحسين رضي الله عنهم،قال ديك الجن :

والخمسة الغر أصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب

(٣) هو جعفر بن أبي طالب ،وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ،وكان يقول حين أخذ الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

ولقب بالطيار لما روي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي (ﷺ) قال :"دخلت الجنة البارحة ،فرأيت جعفراً يطير مع الملائكة ،وجناحاه مضرجان بالدم

(٤) خار الله لك في الأمر : جعل لك فيه الخير

(٥) جمهرة خطب العرب-أحمد زكي صفوت.جـ٢.ص٣١-٣٣ المكتبة العلمية بيروت- لبنان.

٣- خطبة أم الخير بنت الحريش

" يا أيها الناس : اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم في عمياء مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول :" ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم " ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يا رب أزمة القلوب ، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن [١] بدرية ، ،وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية [٢] وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ثارات بني عبد شمس ، ثم قالت : " قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون " صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ،قاتلوا على بصيرة من ربكم،وثبات من دينكم فكأني بكم غداً،وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة [٣] لا ندري أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ،

(١) جمع إحنة: وهي الضغينة والحقد ،تومئ إلى ما كان من قتل علي يوم بدر أخا معاوية (حنظلة بن أبي سفيان) وجده لأمه (عتبة بن ربيعة) وخاله (الوليد بن عتبة) .

(٢) تشير إلى ما حدث من هند زوج أبي سفيان (أم معاوية) في غزوة أحد ،إذا بقرت بطن حمزة عم النبي (ﷺ) بعد مقتله وأخذت كبده لتأكلها .

(٣) الأسد والرماة من الصيادين ،والواحد قسور

واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص ، إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها ؛ فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الجدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدوهن رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ﷺ) ؛ وصهره ، وأبي سبطية ، خلق من طينته ، وتفرع من نبعته [1] ، وجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين . وهاهو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ، فيالها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ؛ قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله " [2] .

٤ ـ خطبة عمر بن عبد العزيز

" أيها الناس : إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شئ ، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق

(١) النبعة في الأصل واحد النبع:شجر القسي والسهام .
(٢) جمهرة خطب العرب ـ أحمد زكي صفوت.جـ١.ص٣٧١.ط المكتبة العلمية بيروت لبنان

، ألا ترون انكم في أسلاب [1] الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله ، قد قضى نحبه [2] وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع[3] من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، مرتهنا بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيرا إلى ما قدم .

وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ، ولحمتي [4] الذين يلونني حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وأيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة [5] لكان اللسان مني ناطقا ذلولا ، عالما بأسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيه على طاعته ، ونهى فيه عن معصيته " ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ،فلم ير على تلك الأعواد حتى قبضه الله [6] .

---

(١) جمع سلب بالتحريك :وهو ما يسلب

(٢) النحب :الأجل ،والحاجة،والنذر

(٣) شق .

(٤) اللحمة : القرابة

(٥) الغضارة : النعمة ،والسعة ،والخصب

(٦) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة - أحمد زكي صفوت جـ١ ص٢١١- ٢١٢ ،ط المكتبة العلمية بيروت – لبنان

٥- خطبة "عتبة بن أبي سفيان [١]" في مرضه الذي مات فيه :

ولما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله:" يا أهل مصر لا غنى عن الرب ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتني لا أكون اخترت دنياي على معادي ، فأصلحتكم بفسادي ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليكم فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عائداً إليكم : فلم يعد [٢] .

٦- خطبة الحسن البصري: [٣]

للحسن البصري -رحمه الله- خطب كثيرة منها هذه الخطبة التي قال فيها بعد الحمد والثناء " يا بن آدم : بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه ، الثواء[٤] هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر

(١) عتبة بن أبي سفيان بن حرب ولاه أخوه معاوية على مصر بعد وفاة عمرو بن العاص .وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣هـ وأقام عتبة والياً على مصر سنة واحدة وشهر واحداً وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤هـ وقيل إنه توفي سنة ٤٦هـ .

(٢) جمهرة خطب العرب -أحمد زكي صفوت جـ٢ . ص٢٢٤ط المكتبة العلمية بيروت .

(٣) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسكين وإمام أهل العلم والرأي في عصره ،وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة .

(٤) الإقامة

الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها [١] وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم .

فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم ، من رأى محمداً (ﷺ) فقد رآه غادياً ورائحاً ؛ لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رفع له علم فشمر إليه [٢] ، فالوحاء الوحاء [٣] . والنجاء النجاء ، علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة ! قد أسرع بخياركم : وأنتم كل يوم ترذلون[٤] ، فماذا تنتظرون ؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض [٥] وآتاه منها قوة وبلغه ، ثم قال :" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ". فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم [٦] .

---

(١) أي بزمنها الحالي ،من حليت المرأة كرضي فهي حال وحالية: لبست الحلي والمعنى ذهبت بزخرفها الذي تزينت به للناس فأضلتهم وأغوتهم ،وهي في نسخة :" بحال بمالها " وفي أخرى : "بحال بالها " وهو تحريف

(٢) وفي نسخة:"فسما إليه" .

(٣) الوحا ويمد : العجلة والإسراع .

(٤) أي تصيرون أرذالا جمع رذل : وهو الدون الخسيس .

(٥) أي موضعا ساميا .

(٦) أي أبعدهم وفي نسخة :" وسحقهم " أي أهلكهم .

يا بن آدم : طإ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا ، فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا .

يا بن آدم : اذكر قوله :﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفا الدنيا ، وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدراً ، ولا الكدر ما عاد صفواً ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم ، ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت [1] السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواماً ما كنت صحبتهم إلا قرة عين ، وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواماً كانوا - من حسناتهم أن ترد عليهم - أشفق [2] منكم - من سيئاتكم أن تعذبوا عليها - ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها ، مالي أسمع حسيساً ، ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقى النسناس [3] ، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ،

(١) محيت .

(٢) أخوف .

(٣) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه :" ذهب الناس وبقى النسناس قيل : فما النسناس ؟ قال : " الذين يشتبهون بالناس ، وليسوا خلق على صورة الناس خالفوهم في أشياء ، وليسوا منهم ".

ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب :" رحم الله أمرأ أهدى إلينا مساوينا " أعدوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذه من قبل ربه ، إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه .

يا بن آدم : الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في القلوب ، وصدقه العمل (1) .

٧- مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة :

لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق – وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك – استدعى الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، والشعبي ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : "إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما ترون ، فيكتب إلي بالأمر من أمره ، أعرف في تنفيذه الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن سطوته ، فما ترون ؟

قال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية ، وكان ابن هبيرة لا يستشفى دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال

(1) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة – أحمد زكي صفوت . جـ٢ . ص ٤٨٧ . المكتبة العلمية بيروت – لبنان وانظر البيان والتبيين ٣ : ٦٨ وعيون الأخبار م٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م١ : ص ٤٦٩ .

" يا بن هبيره حف الله في يريد . ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يريد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكا ، فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا بن هبيرة : إن تعص الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده . فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " .

وفي رواية أخرى قال " أقول والله انه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، فلا يغنى عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإني لا أرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد ، نظرة يمقتك بها ، فيغلق عنك باب الرحمة ، واعلم اني اخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول :" ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد " وإذا كنت مع الله في طاعته كفاك بوائق [1] يزيد وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكلك الله إلى يزيد حتى لا يغني عنك شيئا " فبكى عمر بن هبيرة بكاءً شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سفسفنا له [2] فسفسف لنا [3] .

---

(١) جمع بائقة وهي الداهية (٢) سفسف عمله لم يبالغ في إحكامه .
(٣) جمهرة خطب العرب أحمد زكي صفوت جـ٢ ص ٤٩١ ٤٩٢ المكتبة العلمية .وانظر وفيات الاعيان ٨ ١٢٨ ،الحسن البصري لابن الجوزي .ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، وعيون الأخبار م٢ ص ٣٤٣ شرح ابن أبي الحديد م٤ . ص ٥٩

دواعي الخطابة في العصر الأموي

كثرت دواعي الخطابة في صدر الدولة الأموية ووسطها واتسعت موضوعاتها ، وتشعبت نواحيها ، وكان أعظم دواعيها وأوسع موضوعاتها .

١ - **الفتن** : الفتن التي قامت في صداها الدولة الأموية ، وتأججت نيرانها ، واشتد لهيبها بعد موت معاوية عندما تولى يزيد ، فقد انقسم المسلمون إلى أحزاب : شيعة ، وخوارج ، وأمويين ، وزبيريين ، وكل يدعو الناس إلى فكرته ، وتأييد دعوته ، واشتبكت الحروب بين هذه الطوائف ، فقاتل الحسين جند يزيد ، وقتل ، وقاتل عبد الله بن الزبير حتى تم له الأمر في الحجاز والعراق ، ثم انتقصت أطراف ملكه وشيكا والخوارج استمروا إلباً على الدولة لا تسكن لهم ثائرة ولا تخمد لهم جذوة . وكان من وراء السيوف الخطب القوية ، والعبارات الشديدة الدافعة إلى الموت ، رجاء مثوبة الرحمن ، أو طمعاً في السلطان ، فالخطابة وجدت في تلك الفتن معيناً للقول ، وحافزاً إليه .

يذكر المعترضون على بني أمية مساوئهم ، واجتراءهم على ذوي الحق ، ويرمونهم بالخروج على الدين ، ويذكرونهم بماضي أسلافهم في محاربة النبي (ﷺ) والسابقين ، والأمويون يرمون أولئك بالبغي والخروج على الطاعة ، وسترى ذلك واضحاً في المختار من الخطب .

٢- السياسة : كان الخلفاء وولاتهم في أشد الحاجة إلى أن يبينوا للناس سياستهم ، ليأخذوهم بها ، إذ كانت نفوس المحكومين في قلق دائم مستمر ، وميل للخارجين ، فكان الخلفاء وأتباعهم يبينون حكمهم وعدالته ، وإحسانهم للناس إن أسلسوا القياد ، وأخلصوا ، ويرعدون ويبرقون ، ويهددون وينذرون من يخرج أو يحيد عن الجادة ، وقد كان صوت الترهيب أظهر في البلاد التي نبتت فيها فتن ، كالعراق والحجاز . وصوت الترغيب اوضح في البلاد التي وادعت وسالمت ، بل عاونت وناصرت ، كالشام

انظر إلى خطبة زياد البتراء بالبصرة ، وخطب الحجاج في العراق ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير ، تر ذلك واضحاً كل الوضوح .

٣- الفتوح الإسلامية : لم تنقطع في العصر الإسلامي ، ولعل الأمويين وجدوا فيها شاغلاً للعرب ، يمنعهم من التفكير في أمرهم ، والانتفاض عليهم ، فوجهوهم إلى البلدان ، لكيلا يكون بأسهم بينهم ، ففي عصر معاوية فتحت بلاد في شمال أفريقية ، والسند ، وبعض أفغانستان ، وفي عهد عبد الملك والوليد ابنه تم الاستيلاء على شمال أفريقية ،والأندلس ، وامتد السلطان الإسلامي إلى بلاد البنجاب في الهند ، واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى ، وفي عهد سليمان بن عبد الملك حوصرت الاستانة ، والحروب كما بينا تحتاج

إلى الخطابة والبين ، وقد أسهبنا في بيس ذلك في العصر الإسلامي السابق ، فارجع إليه .

٤- الوفادة : كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء في ذلك العصر لرفع شكاة ، أو لامتياح ، أو إعلان النظرة والتأييد ، وقد يدعو الخليفة بعض الوفود إليه ، ليسدي إليهم يداً ، أو يعقد حبل مودتهم ، أو يستعتبهم على سابقة منهم ، والوفود عادة من كبار المتكلمين المجيدين يلقون كلامهم في لسان مبين ، وقول حكيم ، وأسلوب محكم ، وإذا اعترض عليهم ، سددوا الجواب ، وأتوا بأحسن الخطاب .قال ابن عبد ربه في الوفادة :

إنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، وتستعذب الألفاظ ، وتستجزل المعاني ، ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم ، وزعيمهم الذي عن قوسه ينزعون ، وعن رأيه يصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة .

فالوفد يكون من أرباب البيان ، والوفادة روحها اللسان والجنان ، لذلك كانت كثرة الوفادة في ذلك العصر عاملاً من عوامل انتشار الخطابة ، وموضوعاً من موضوعاتها .

٥- المدح والتهنئة والعزاء : كانت الخطابة في هذا العصر تقال في بعض الموضوعات التي كان يقال فيها الشعر ، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحاً في خليفة ، أو تهنئة بولاية ، أو تعزية لفقد عزيز كريم ، وقد تكون الخطبة أحياناً مشتملة على التهنئة

والتعزية عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة ، فيجتهد الخطيب في أن تكون خطبته جامعة بين تعزية المواسي في فقد ، والمهنئ بنيل أمل كان مرتجى ، كما فعل كثيرون من الخطباء في عزاء يزيد بن معاوية ، وتهنئته بالملك .

٦- **الوعظ الديني :** كانت سيطرة الدين على بعض النفوس دافعة لأن ينصرفوا إلى العبادة والنسك ، والتقوى والإرشاد ، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد ، والتعمق في بحثها ، وكون رأياً فيها ، دعا إليه ، وحث عليه ، ومنهم من عكف على مناقشة الخارجين على الإسلام الهادمين لبنائه ، والرد عليهم ، فلحن بالحجة ، وقدم الدليل ، ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصري ، وواصل بن عطاء ، ومطرف بن عبد الله الخرشي ، وبكر بن عبد الله المزني ، ويزيد بن أبان الرقاشي ، ومالك بن دينار ، وأكثر هؤلاء قاص مجيد بليغ ذو منطق وجيز .

٧- **مجالس المباراة في الخطابة :** كانت تعقد مجالس للمباراة في الخطابة ، والسبق فيها ، وكثيراً ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة ، ليختبر مقدار بيانه ، وقوة جنانه ، وحضور بديهته ، ونهوض حجته ، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وإلى العراق من مجلس الخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى ، وواصل بن عطاء .[1]

---

(١) الخطابة أصولها – تاريخها في أزهر عصورها عند العرب . الإمام /محمد أبو زهرة .ص ٢٣٨ –٢٤٠ . ط دار الفكر العربي .

خصائص الأسلوب الخطابي في العصر الأموي

كان الأسلوب في ذلك العصر يشبه الأسلوب في عصر الخلفاء الراشدين في الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجميل الخطبة أحياناً ببعض أبيات الشعر، وتقسيم الخطبة إلى مقدمة تشتمل على حمد الله، والثناء عليه، وموضوع، وخاتمة.

ولكن كثر في خطب ذلك العصر الازدواج، وهو أن تكون الخطبة مقسمة إلى فقرات متناسقة، وإن لم تكن ذات قواف متحدة. اقرأ خطبة عبد الملك بن مروان التي خطبها بعد قتل مصعب بن الزبير في العراق، وتراها ذات فقرات متناسقة. وقد كان على شاكلتها كثير من خطب هذا العصر.

وكثر أيضاً الاجتهاد في تحسين الخطب، وتجميل الكلام، وإن كانت السليقة العربية التي امتاز بها أكثر خطباء الأمويين والخوارج، قد سترت ذلك التكلف، ولم تظهره، وإنك لتلمح في خطبة الحجاج التي قالها في أول مقدمة إلى العراق، الصناعة المحكمة، والقصد إلى التحسين. ولعل السبب في كثرة تحسين الخطبة في ذلك العصر أن كثيراً من الخطباء كانوا يزورون كلامهم قبل إلقائه، ويجمعون الفكرة قبل أن يتقدموا للخطبة، واقرأ ذلك الخبر الذي جاء في العقد الفريد: قيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويتبعده، فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن

يفتضح ، قال : فأمر رسولا أن يأخذ بيده إلى المسجد ، فلم يفارقه حتى صعد المنبر .

ألا يدل ذلك الخبر على أن التهيئة قد كثرت حتى كان يتهم بها بعض المجيدين المقال ، فإنه لا اتهام في أمر يكون بعيد الحصول ، غير قريب من المألوف المعروف . وربما كان من أسباب الاتجاه إلى تحسين الكلام وتنميقه – المباريات التي كانت تقوم بين الخطباء فإن كلا كان يحاول السبق ، والإبداع في الأسلوب والمعاني ، ليكون الأغلب والأسبق . ومن الأسباب أيضاً أن الكلام صار شهوة ، وصار موضع فخر ، وكل ذلك يدفع الإنسان إلى التحسين . وقد دفعهم ذلك أيضاً إلى محاولة أن يضعوا أصولا للخطابة ويلقنوها التشبيه ، كما كان يفعل الأثينيون في عصور ازدهار الخطابة ، فقد ورد في البيان والتبيين والعقد الفريد أن إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني كان يعلم الفتيان الخطابة ، ومر به بشر بن المعتمر على ما بينا في القسم الأول ، وإبراهيم هذا كان من أصحاب عبد الملك بن مروان ، وعاش إلى خلافة المنصور العباسي ، وهذا الخبر في جملته ، يدل على أن الخطابة كانت تلقن ، وتعلم في آخر العصر الأموي ، وابتداء العصر العباسي ، وأن الناس قد ابتدءوا يفكرون في وضع أصول لها ن حتى جاء العصر العباسي بترجمته وعلومه ، فترجمت الأصول الخطابية اليونانية فيما ترجم في العصر العباسي كما بينا [1] .

(١) المرجع السابق . ص ٢٤٧-٢٤٨

الفصل الخامس

اللغة وفصاحة اللسان :

لا يخفى ما للغة العربية من فضل فى طلاقة اللسان و إفصاح البيان ، « فلها الفضل من جهة اعتدال كلماتها فإننا نجد أن أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف ، و أقل من الثلاثى ما وضع على أربعة أحرف ، و أقل من الرباعى ما وضع على خمسة أحرف ، و ليس فى اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية ، و قد جاءت ألفاظ قليلة جداً على حرف واحد و على حرفين .

و لها فضل من جهة فصاحة مفرداتها ، فليس فى كلماتها الجارية فى الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع ، و للعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضاءة قطعاً أو خطباً أو قصائد تسترق الأسماع و تسحر الألباب » (١) .

« فاللغة العربية بحر لا ساحل له .... و هى فى حاجة إلى سبّاح ماهر ، و مع مهارته لن يصل إلى شاطئها مهما خاض و سبح ! و عليه أن يسدد و يقارب .

إنها المحاولة .... و بذل الجهد ... و هو ما نطالب به شبابنا ليبذلوا جهودهم أولاً - حتى يصلوا للدعوة - للوقوف على أسرار لغتهم .

و لو لم يكن للغة إلا أنها توصل إلى إعجاز القرآن ... و معنى النبوة ... و هداية أمر المعاش و المعاد ... لكفى » (٢) .

---

(١) الخطابة فى موكب الدعوة ص ٧٤ جـ ١ بتصرف يسير .

(٢) الخطابة فى موكب الدعوة جـ ١ ص ٧٥ .

و قد جاء القران الكريم بلغة العرب فى وقت كان أكثر العرب شاعرا أو خطيباً لديهم سلطان البيان ، و فصاحة اللسان ، فلا منازع لهم فى سلطانهم و لا مبارى لهم فى فصاحتهم ، وصلوا من القوة و التمكن أن عقدوا للكلمة سوقاً مع أسواقهم ، و كانت أروج بضاعتهم و أربح تجاراتهم ، و مع ذلك جاء القرآن معجزاً لهم ، متحدياً إياهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله بالرغم من أن كلامه من حروف كلامهم ، و جمله و تعبيراته من ألفاظهم و معرداتهم ، و مع ذلك عجزوا عن الإتيان ، و خرجوا من التحدى يحوطهم الخذلان بعد أن أقروا له بالعظمة ، و اعترفوا له بالإعجاز ، و شهدوا أنه ليس من كلام الجن و لا من كلام الإنس .

و مع ما وصلت إليه العربية فى الجاهلية من قمة عالية ، و الخطابة من مكانة غالية ، إلا أن القرآن الكريم جاء فألبس العربية ثوباً قشيباً فهذب شاردها ، و قوَّم عوجها ، و أضاء معانيها ، و أنار ألفاظها ، و أصبح لها قسطاساً و ميزاناً . و تقر له بالفضل خضوعاً و عرفاناً ، و بدا واضحاً ما للقرآن الكريم من تأثير فى اللغه العربية و منه (١) :

أولاً : أكسب القرآن الكريم اللغة سعة فى المعنى ، فقد أتى بمعانٍ لم يرد العرب مواردها ، فحدَّث عن النفوس و وصفها فأحسن وصفها ، حلَّل نفس الضال و علة ضلاله ، و نفس المهتدى و عريق اهتدائه ، صوَّر تقلبات القلوب و خلجات النفس ، و ما يؤثر فى المشاعر ، فدعا ذلك المسلمين إلى

---

(١) [illegible] أبو زهرة ص ٢٦٠ بتصرف يسير

الاعتراف من منهله العذب ، و شاعت بينهم الأقوال فى الأمور المعنوية ، و سمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها بغير القرآن الكريم ،، و أثر القول فى الأمور المعنوية و حسن تصويرها فى الخطابة جلى لا يحتاج إلى تبيان .

ثانياً : و قد جاء القرآن الكريم فى لفظ سهل و متين ، خال من الألفاظ الخشنة الجافة ، يصل إلى الأغراض من أقرب مسالكها ، فأعجب بذلك قارئوه و سامعوه ، فحاكوه فى نهجه و إن لم يساموه فى قدره ، و تهذبت به اللغة أتم تهذيب ، فسهلت عباراتها ، و رقت أساليبها، و استؤنست ألفاظها ، إذ سن لها نوعاً من التعبير لم تنهجه ، فكان فتحاً جديداً فيها بألفاظه و أساليبه ، كما كان فتحاً جديداً فى العالم كله ، بهديه و تقويمه ، و تأديبه و أثر ذلك فى ألفاظ الخطابة واضح غير خفى .

و كما وضح تأثير القرآن فى اللغة العربية أفادت منه الخطابة أيضاً ، « فقد أخذ الخطباء ينهجون نهج القرآن الكريم فى الاستدلال إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الإقناع الخطابى ، فقد اجتمع فى أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمع فى أدلة سواها ، إذ تجد فيه استقامة المعنى إذا قسته بمقياس المنطق ، فتجد المقدمات قد تلاء مت مع نتائجها ، و توافرت فيها شروط الإنتاج ، كما تجد فيها جمال اللفظ و جودة الأسلوب و مخاطبة الإحساس ، و إثارة الرغبة ، و لنقرأ قول الله – عز و جل – . ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ

لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (١) نجد الدقة المنطقية ، و جمال اللفظ ، و مخاطبة الوجدان قد اجتمعت مع حسن الإيجاز ! فتعالت كلمات الله - سبحانه و تعالى - و صدق الله - عز و جل - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ (٢) .

« وجد الخطباء في القرآن كل ذلك ، فوجدوا فيه معلماً لطرق الإقناع و الاستدلال ، لا يقاضيهم أجراً ، فآثروا طريقته ، و اقتبسوا (٣) من عباراته

---

(١) سورة الأنبياء ٢٢ .

(٢) سورة النساء ٨٢ .

(٣) الاقتباس : أن يأخذ المتكلم شيئاً من كلام غيره فيدرجه في كلام نفسه بعد التمهيد له لتأكيد ما أتى به من المعنى ، فإن كان قليلاً فهو إيداع ، و إن كان كثيراً فهو تضمين ، و على كل فإنه يكون من كلام الله - عز و جل - أو من كلام رسوله ﷺ أو من كلام البلغاء و غيرهم ، و قد رخص بعض العلماء في تضمين بعض آيات القرآن في الخطب والمواعظ من غير إفراط حتى استعمله كثير من الناس ما لم يخرج القرآن في التضمين عن الغرض المسوق له ، و كان يعطي الكلام حلاوة و طلاوة و إلا منع منه ، و من الجائز قول أحدهم في وصف عبد أراد شراءه : و قد لبس ثوباً من الجمال و حلة من الكمال فلما تأملت خلقه القويم و خلقه الصميم خلته من ولدان جنة النعيم و قلت ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

و من الممنوع قول أحدهم لرجل جاء وقت حاجته إليه « ثم جئت على قدر يا موسى » سورة طه ٤٠ ، و قول الحجاج لمن في سجنه و قد طلبوا الرحمة و الإفراج عنهم « اخسئوا فيها و لا تكلمون » المؤمنون ١٠٨ . و علة المنع ما فيه من صرف كلام الله - تعالى - عن وجهه و إخراجه عن المعنى الذي سيق لأجله ، و لما فيه من الإخلال بإجلال كلام الله و تعظيمه (راجع في ذلك فن الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٦٢ ، ٦٣ باختصار) .

حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شئ من القرآن الكريم ، و كانوا يسمون الخطبة التى لم توشح بالقرآن الكريم و تزين بالصلاة و السلام على النبى ﷺ بالشوهاء ، و فى الحق وجد الخطباء المثل الأعلى فى الكتاب العزيز فنهجوا نهجه فى الإقناع و إقامة الحجة ، و اقتبسوا من لفظه ، و استعانوا بروحه فحيوا فى بلاغتهم و خطبهم حياة جديدة » (١) .

« إن فى القرآن الكريم بركة تنعكس على حافظه علماً و بصيرة فى شئون الحياة ، و فيه من جمال الأسلوب و بلاغة التراكيب ما يترك أثره حتماً على لسان حافظه .

إن الصحبة المثمرة لحافظ القرآن تؤتى أكلها و لا ريب .. و تتأكد هذه الثمرة لتظهر على اللسان تعبيراً حسناً إذا حفظنا آياته ... لنروض هذه الألسنة بالحفظ على النطق الصحيح طبعاً لا تطبعاً » (٢) .

إننا نقابل من الناس من عذب بيانه و رق كلامه و فصح لسانه ، و عند السؤال عنه نجده صفر اليدين من الشهادات العلمية ، و الإجازات الأدبية ، و لكن عند التأمل نجد أنه حافظ لكتاب الله – عز و جل – ، و حفظه لكتاب الله قوَّم لسانه ، و هذَّب ألفاظه ، و نراه ينطق اللغة سليمة قواعدها بالرغم من عدم معرفته بهذه القواعد . ، و لذا لما غاب خطيب مسجد فى يوم جمعة

---

(١) الخطابة / الشيخ أبو زهرة ص ٢٦١ .

(٢) الخطابة فى موكب الدعوة جـ ١ ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

راح الناس يبحثون عن أهل التخصص أولاً ، فلما لم يجدوا بحثوا عن حفظة كتاب الله - عز و جل - ، لتأكدهم من تأثرهم به فى بيانهم مما يصقلهم لغوياً أكثر من غيرهم الأمر الذى يفى بالغرض ، و يرفع ما فى الموقف من حرج .

« إن المتعلم يحفظ قواعد النحو ... و قد يخطئ عند الممارسة العملية ... بينما صاحب القرآن ينطق - من خلال الآيات الكريمة - الفاعل مرفوعاً ... و الحال منصوباً ... و هكذا .. و ربما لو ألمّ ببعض القواعد لحقق نجاحاً أربى من زميله أسير القواعد .. بفضل ما عودته الآيات من صواب .. » (١) .

إن اللغة العربية هى قوام هذا الدين ، بها يُمكَّن له و ينتشر ، و بها يقوى و يظهر ، فهى لغة القرآن و بدونها لن يفهم كلام الله - عز و جل - ، لن يعرف الحلال من الحرام ، و لن يفهم الأمر و النهى ، و لا يعلم المحكم من المتشابه ، و لا العام من المخصوص ، و لا الناسخ من المنسوخ ، و بدونها لن يفهم كلام النبى ﷺ فتنقطع الصلة بين الأمة و مصدر التشريع بل و مصدر الحياة .

إن أعداء الإسلام فهموا ما للغة العربية من دور فى قوة هذه الأمة ، و لذا عملوا جاهدين للفصل بينها و بين أبنائها ، فإذا ما ضاعت لغة قوم ضاع

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦

معها كل شئ فى حياتهم فيندثر تاريخهم ، و يضيع تراثهم ، و يتيهون بين المجتمعات و الأمم بلا لسان و بلا و جهة .

و لم يكن من قبيل المصادفة اهتمام الغرب باللغة العربية منذ أمد بعيد ، و لم يكن عبثاً أن يأتى الاهتمام بها فى ظل تصاعد مطامع الأعداء فى هذه الأمة . يبتغون القضاء عليها ، و هدم دينها ، و نهب خيرها و ثرواتها ، و لا يخفى ما للاستشراق من دور خطير فى إضعاف اللغة العربية فى نفوس أبناء الأمة ، فعمل المستشرقون جاهدين فى ترجمة المؤلفات العربية إلى لغاتهم و كذا المخطوطات ، و قاموا بتأليف آلاف الكتب التى تضرب فى القرآن و السنة و اللغة العربية و آدابها حتى تنقطع الصلة بين القرآن و السنة و لسان العرب ، و قد أثرت جهودهم مستغلين جهل البعض من أبناء الإسلام بحقيقة دينه و لغته حتى « نبتت فى مطلع القرن العشرين فئة خاسئة ، نهلت من كتب الغرب و لقنت أراجيف الاستشراق فأخذت تتنكر للبلاغة و البيان ، و ترى الديباجة الناصعة و الأسر القوى آثاراً متخفية تعرض و لا تشترى و تقرأ و لا تجتذى ، ثم فاض بها الضغن الكر يه فأعلنت أن الأدب العربى شئ و القرآن شئ آخر » (١) ، « ورأت من ذيول الأدعياء من ناصرها بالباطل ، فألّف الكتب المغرضة ، و أنشأ المقالات الزائفة ، ليرجع

---

(١) الخطابة فى موكب الدعوة ص ١٣٧ بتصرف .

بالعربية إلى لغة الحديث المتساهل و ليجعلها ترجمة شوهاء لا شرقية و لا غربية » (١) .

و وجدنا من يحمل أسماء المسلمين يطعن فى القرآن و نبى القرآن و لغة القرآن ، و عن تعمد تزاحم اللغات الأجنبية لغتنا العربية ، فى مدارسنا و إعلامنا و مؤسساتنا ، حتى وجد من البعض من يتباهى بتعلم أولاده لغات أجنبية ، و دراستهم فى مدارس و كليات أجنبية و لا يدرى عن لغته شئ ! ، فإذا ما سألته عنها تبدو عليه الدهشة و كأنما قد سألته عن تاريخ مضى ، و مرحلة انتهت .

و من هنا هبَّ العديد من المستنيرين مدافعين عن لغتهم العربية ، منافحين عنها ، مناهضين لتيارات الحقد و العمى التى تود النيل منها و من ثم النيل من عقيد تناوحياتنا .

إن من عوامل حفظ القرآن الكريم حفظ اللغة التى نزل بها القرآن ، و التى إن اندثرت غاب عن أتباعه فهمه ، و غاب عنهم علمه . . يقول الشيخ الغمراوى عن عظمة القرآن محفوظاً : « و توالت عناية الله بكتابه ، فقد كانت الكتابة لا تنقط ، و يقرأ الناس القرآن صحيحاً بالتلقى من حفاظه عن النبى ﷺ ، و ممن تلقى عنهم ممن شهدوا له بالحفظ ، و لكن علم الله ما يتهدد كتابه من الأخطار بعد موت حفاظه الأولين و تغير العصور ، فسخر لكتابه

---

(١) النهضة الإسلامية د / محمد رجب البيومى ص ١٧٤ - ١٧٥ .

من ابتدع تمييز الحروف فيه بالنقط فى زمن عبد الملك بن مروان ، و كانت الكتابة غير مشكولة ، و كان الناس يقرأون القرآن صحيحاً بالتلقى المؤيد بالسليقة العربية ، و علم الله ما قد يصيب كتابه من التحريف إذا ظلت المصاحف غير مشكولة ، و انتشرت العجمة بين الناس بإنتشار الإسلام إثر الفتوح ، فسخر أولاً من ابتدع الشكل بالنقط الملونة ، ثم جاء الخليل بن أحمد فاخترع الشكل بصورته الحالية التى لا تلتبس على أحد رغم ما يزعمه الآن بعض من تثقف بثقافة الغرب من مقلدة المستشرقين ، و سخر ثانياً من قعَّد قواعد النحو من عصر أبى الأسود الدؤلى إلى عصر سيبويه حتى يستطيع المسلم بالتأديب أن يقرأ صحيحاً ، و لو بدون شكل ، فكان هذا آية أخرى من آيات حفظ الله لكتابه .

و القراءة الصحيحة وحدها لا تكفى إذا لم تحتفظ اللغة العربية لغة القرآن بمعانى كلماتها الأصلية زمن نزوله ، و اللغات إذا تركت للتطور الزمنى اختلفت و تراكم الاختلاف ، حتى لا يفهم آخر أبنائها آثار آبائه الأولين ، و عندئذ يستغلق كتاب الله على المؤمنين إن لم يفهموا منه - بفعل التطور - ما أراد الله فيضلوا عن دينه فكان من صنع الله لكتابه و حفظه إياه أن سخر لجمع العربية من مظانها بالبادية و غير البادية - قبل أن يغشاها مد التطور - رجالاً من علماء العربية من العرب ، و ممن نشأ فى الإسلام من العجم ، فكانت كتب اللغة و الأدب و القواميس الأصلية الصحيحة التى

حفظت على لغة القرآن كيانها إلى اليوم و صيرتها بين اللغات آية من آيات الله » (١) .

و قد فهم الرعيل الأول من صحابة النبى ﷺ ما للغة من دور فى حفظ الدين فيقول عمر رضي الله عنه : « تعلموا العربية فإنها دينكم » (٢) .

« و ليس المقصود بالتعلم حفظ قواعدها .. لكنه التعمق المعين على فهم القرآن و السنة ... و ذلك ما أشار إليه عمر فى خطابه إلى أبى موسى الأشعرى بقوله : « أما بعد : فتفقهوا فى السنة ... و تفقهوا فى العربية » .

بل إن العدول عن التكلم بالعربية مع القدرة عليها من شأنه أن يورث النفاق على ما قيل : من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم إلا بالعجمية فإنه يورث النفاق » (٣) .

و انظر ما بلغته اللغة العربية من عظمة فى كلماتها و حروفها ، فى مقاطعها و فواصلها ، فى نقطها و شكلها ، فى كل ما كبر أو صغر من ألفاظها و معانيها ، حدث أن قدم أعرابى المدينة المنورة فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و سأل عمن يعلمه القرآن ، فأقرأه رجل سورة « براءة » و تلا عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (٤) بكسر اللام فى « رَسُولُهُ » . فقال

(١) الإسلام فى عصر العلم للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ص ١٧٥ ، ١٧٦ بتصرف يسير ط دار الكتب الحديثة .

(٢) الخطابة فى موكب الدعوة جـ ١ ص ٧٨ .

(٣) الخطابة فى موكب الدعوة ص ٧٨ .

(٤) سورة التوبة ٣

الأعرابى : أن يكون الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه !! .

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه ، فدعا الأعرابى .. و عرف القصة .. فقال : ليس هكذا يا أعرابى إنما هى:« ... أن الله برئ من المشركين و رسولُه » برفع اللام . فقال الأعرابى و أنا و الله أبرأ مما برئ الله و رسوله منه .

فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرأ الناس القرآن إلا عالم باللغة و أمر أبا الأسود فوضع علم النحو (١) .

و من هنا إذا كانت اللغة العربية لازمة للمسلم لحفظ الدين فإنها ألزم للداعية و الخطيب حتى يحفظ دينه ، و يستطيع نشره و الدعوة إليه على بصيرة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن مجـ ١ جـ ١ ص ٢٠ ط دار ابن خلدون ط ٥ / ١٩٩٦ .

بلاغة النبى - صلى الله عليه وسلم - :

كلام النبى ﷺ هو الرافد الثانى - بعد القرآن الكريم - الذى يتغذى به نهر الفصاحة و البلاغة . و هو الشريان الثانى - بعد القرآن الكريم - الذى يحيا به قلب البيان ، و بدون هذين الرافدين لا قيمة لبلاغة ، و لا حياة لبيان و يجف مداد الفصاحة فى حياة الخطيب .

« و كلام النبى ﷺ هو الكلام الذى يلى منزلة القرآن الكريم احتراماً و إجلالاً ، و قد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ و جودة المعنى و حسن الأداء ، بلغ من البلاغة الذروة ، و وصل من الروعة القمة ، هو جوامع الكلم ، و فيه روائع الحكم ، هو القول الفصل ، لا فضول فيه و لا تكلف ، أخذ من القرآن الكريم ، و أوحى إليه به الرحمن ، لكلامه جلال لا تجده فى سواه ، و تحيط به هالة روحية تحس منها بشعاع النبوة ، و لو أن كلامه عرض عليك منسوباً لغيره لأنكرت النسبة ، و رددت الحق إلى نصابه ، و قد أثار ذلك روح العجب و الإعجاب فى أصحابه حتى قال له أبو بكر رضي الله عنه : لقد طفت فى العرب ، و سمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك . فمن أدبك ؟ فقال - عليه الصلاة و السلام - : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى (١) » (٢) .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسير قوله تعالى : « و إنك لعلى خُلق عظيم » ، و جاء عنه فى كشف الخفا قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت ، و فى اللالئ معناه صحيح و لكنه لم يأت من طريق صحيح جـ ١ ص ٧١ .

(٢) الخطابة / الشيخ أبو زهرة ص ٢٦١ ، ٢٦٢ بتصرف يسير .

و لم يكن الإقرار لرسول الله ﷺ بالفصاحة و البلاغة و حسن البيان و روعة التعبير اعترافاً من الصديق وحده ، بل إن الكل شهد بذلك لحضرة النبي ﷺ . شهد له العدو قبل الصديق ، و القريب و البعيد على السواء . شهد له بذلك سمع الزمان ، و صفحات التاريخ ، أجيال يعقبها أجيال ، و أزمان يتبعها أزمان ، و تظل الشهادة خالدة ، و الإقرار حاضراً ، لا ينكره إلا من طُمِسَ على عقله ، و كان على سمعه و بصره غشاوة ، و كان في قلبه مرض . بل إن الكفار أنفسهم أقلقهم حسن بيانه ، و أرعبهم حلاوة منطقه فكانوا يرهبون الناس من الاستماع إليه ، و يهددونهم إذا ما أصغوا إليه أن يصيبهم بسحره و يأسرهم بمنطقه ، كناية عن ما لكلامه ﷺ من قوة في التأثير و سطوة في استمالة القلوب و إقناع العقول .

يقول الجاحظ في وصف كلامه ﷺ : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه و كثر عدد معانيه ، و جل عن الصنعة ، و نزه عن التكلف و كان كما قال الله تعالى قل يا محمد : « و ما أنا من المتكلفين » (١) فكيف و قد عاب التشديق ، و جانب أصحاب التقعير ، استعمل المبسوط فى موضع البسط ، و المقصور فى موضع القصر ، و هجر الغريب الوحشى ، و رغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، و لم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة و شيد بالتأييد ، و يسر بالتوفيق ، و هذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه و غشاة بالقبول ، و جمع له بين المهابة و الحلاوة ، و بين حسن الإفهام ، و قلة عدد الكلام ، و هو مع استغنائه عن إعادته ، و قلة حاجة

---

(١) سورة ص ٨٦ .

السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، و لا بارت له حجة ، و لم يقم له خصم ، و لا أفحمه خطيب ، بل يبذ (١) الخطب الطوال بالكلام القصير ، و لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، و لا يحتج إلا بالصدق ، و لا يطلب الفلج (٢) إلا بالحق ، و لا يستعين بالخلابة (٣) ، و لا يستعمل المواربة ، و لا يهمز و لا يلمز ، و لا يبطئ و لا يعجل ، و لا يسهب و لا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً و لا أحسن لفظاً ، و لا أعدل وزناً ، و لا أجمل مذهباً ، و لا أكرم مطلباً ، و لا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، و لا أفصح عن معناه ، و لا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ » (٤) .

و يقول الزمخشري عن بلاغة النبي ﷺ : « هذا اللسان العربي كأن الله مخضه و ألقى عليه زبدته على لسان النبي ﷺ فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرحل ، و ما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل (٥) » (٦) .

و قال القاضي عياض : « و أما فصاحة اللسان ، و بلاغة القول ، فقد كان ﷺ بالمحل الأفضل ، و الموضع الذي لا يجهل : سلاسة طبع ، و براعة منزع

---

(١) يلقى الخطبة بتمكن و قوة و غلبة / القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) الظفر و الفوز / القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الخديعة في القول / القاموس المحيط جـ ص ٦٣ .

(٤) الخطابة - الشيخ أبو زهرة ص ٢٦٢ .

(٥) أي الدلو / القاموس المحيط جـ ص ٣٨١ .

(٦) فيض القدير في شرح الجامع الصغير جـ ٣ / ٤٢ .

، و إيجاز مقطع ، و نصاعة لفظ ، و جزالة قول ، و صحة معان ، و قلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، و خص ببدائع الحكم ، و علم ألسنة العرب يخاطب كل أمة منها بلسانها ، و يحاورها بلغتها ، و يباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه و تفسير قوله ، من تأمل حديثه و سبره علم ذلك و تحققه » (١) .

و يقول العقاد : « كان محمد ﷺ مستكملاً للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ ، كانت له فصاحة اللسان و اللغة ، و كانت له المقدرة على تأليف القلوب ، و جمع الكلمة ، و كانت له قوة الإيمان بدعوته و غيرته البالغة على نجاحها ، فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، و لهيئة النطق بالكلام ، و لموضوع الكلام : فقد يكون الكلام فصيحاً و هيئة النطق غير فصيحة ، أو يكون الكلام و النطق به فصيحين - ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع و القلوب . فكان ﷺ أعرب العرب كما قال : أنا قرشى : و استرضعت فى بنى سعد بن بكر » (٢) .

فله من اللسان العربى بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة و هذه هى فصاحة اللسان و الكلام .

---

(١) الشفا للقاضى عياض جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٤٦ .

و لكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً فى بنى سعد ... و يكون نطقه بعد ذلك غير سليم .. أو يكون صوته غير محبوب .. أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس ، فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل .

أما محمد ﷺ فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه .

و خير من وصفه بذلك أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حيث قالت « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، و لكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، يحفظه من جلس إليه (١) و فى رواية أخرى« كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه (٢) » ، و جاء فى وصف منطقه ﷺ « كان رسول الله ﷺ ... طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام و يختمه باسم الله تعالى ، و يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل ، لا فضول و لا تقصير .. » (٣) .

و اتفقت الروايات على تنزيه نطقه ﷺ من عيوب الحروف و مخارجها ، و قدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها ، فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم .

---

(١) البخارى على الفتح ك المناقب ب . صفة النبى ﷺ ح ٣٥٦٨ .

(٢) سنن أبى داود ك / الأدب . ب . الهدى فى الكلام و قال عنه الشيخ الألبانى « حسن » و صحيح سنن أبى داود ٣ / ٩١٧ .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى جـ ٢٢ ص ٢١٦ ت حمدى السلفى ط مكتبة العلوم بالموصل ١٤٠٤ هـ ، مجمع الزوائد للهيثمى جـ ٨ ص ٢٧٣ ط دار الريان ١٤٠٧ هـ

و قد يكون الرجل ذا منطق سليم و حازم سليم ، ثم يقول كلاماً لا يستحق أن يستمع إليه في موضعه ، و هذا أيضا قد تنزه عنه ﷺ في فصاحته السائغة في شتى نواحيها . فما من حديث له حفظه الرواة الثقات إلا و هو دليل صادق على أنه ﷺ أوتي حقاً جوامع الكلم (١) ، و رزق من فصاحة الموضوع كفاء رزقه من فصاحة اللسان و فصاحة الكلام » (٢) .

و الخطيب في عودته للنبي ﷺ قولاً و عملاً لا يعود إلى فصاحة القول و قوة البيان و جمال التعبير و اتساق التركيب فحسب ، بل إنه يعود إلى القدوة العملية ، و الترجمة الفعلية لكتاب الله - عز و جل - يعود إلى التشريع مطبقاً ، و إلى الدين واقعاً حياً ، فيكتسب من هذه القدوة طريق الرشاد ، و يستلهم من هذه الأسوة نور اهتداء العباد : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (٣) و بطبيعة الحال لابد أن يكون الخطيب أعلم الناس بذلك .

ففي حياة الرسول ﷺ العملية و القولية نماذج رائعة .... استوعبت شئون الحياة بكل تفصيلاتها و دقائقها .... و هي في نفس الوقت بيان لما أجمله القرآن .... من أمور الدنيا و الحياة .. و إذا احتاج الخطيب إلى

---

(١) اشارة إلى حديثه ﷺ «أوتيت جوامع الكلم » البخاري على الفتح ك التفسير ب / قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد » .

(٢) عبقرية محمد ﷺ العقاد ص .

(٣) سورة الأحزاب ٢١ .

الارتباط بمواطن الأسوة فى حياته ﷺ فهو يحتاج أيضاً إلى فتح أبصار الناس و بصائرهم عليها .. تتميماً للفائدة :

لقد كان من رحمة الله – تعالى – أن أرسل إلينا محمداً ﷺ بشراً رسولاً ... فأتاح لنا بذلك فرصة التأسى بأعلى صور الكمال الإنسانى .... و لن يتم ذلك التأسى .. و لن تتحقق القدوة إلا بوقفات واعية ، متأملة دقائق حياته ﷺ و تجليتها للناس بما يكشف عن مواطن العظمة فيها »(١) .

و القضية عند الخطيب لا تقف عند هذا الحد – مجرد التأسى و الاقتداء ، و مجرد تشرب الفصاحة و اكتساب للبلاغة – ، بل إن القضية فى تعامل الخطيب مع السنة المطهرة أعمق من ذلك بكثير . إنها تتعلق بحفظ الدين ذاته .. هذه الرسالة المطالب بها كل مسلم على وجه العموم ، و الخطيب المسلم على وجه الخصوص .

فالدين لا يحفظ إلا بحفظ مصادره ، و مصدر الدين الإسلامى كتاب الله – عز و جل – و سنة نبيه ﷺ . فمن عوامل حفظ هذا الدين حفظ القرآن و السنة ، و قد أشرنا إلى حفظ القرآن الكريم و ما للغة العربية من دور فى ذلك ، أما عن السنة فمعلوم دورها و مكانتها بالنسبة للقرآن ففيها (٢) بيان

---

(١) الخطابة فى موكب الدعوة ص ١٥٥ جـ ١ .

(٢) تفصيل ذلك . انظر الحديث و المحدثون للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٧ و ما بعدها ط دار الفكر العربى .

ما أجمل ، و تفسير لما فيه ، و فيها من تخصيص العام ، و تقييد المطلق ، و توضيح المشكل ، و غير ذلك مما بينه أهل الحديث و غيرهم قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ (١) ، ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

من ذلك كله يتأكد دور السنة النبوية فى حفظ القرآن و من ثم فى حفظ الدين كله ، يقول الشيخ الغمراوى : « و القرآن لا يكفى فى فهم مراد الله من آيات الأحكام فيه فهم كلماته و عباراته على العربية العريقة التى كانت في عهد الرسول ﷺ ، إذ لابد لفهم كل ما أراد الله فيه مما شرع للناس به من الإحاطة بسنة الرسول ﷺ قولاً و عملاً . فسخر الله للسنة رجالاً أعدهم الله لحفظها جميعاً و تمييز صحيحها من مدخولها ، و تمييز أقدار رواتها ، على نسق صحيح علمى سبق المسلمون العالم إليه بهدى و تأييد من الكلام متبعين فى ذلك المبادئ التى سنّها الله فى القرآن لمن يريد الوصول إلي الحق ، فى أى مجالات النظر و البحث شاء .

حتى لقد بلغ من تدقيقهم و تحريهم و احتياطهم لدين الله و سنة رسوله ﷺ أن أخرج الإمام البخارى – مثلاً – فى صحيحه نحو سبعة آلاف من بين ستمائة ألف حديث » (٣) .

---

(١) سورة النحل ٤٤ .
(٢) سورة النحل ٦٤ .
(٣) الإسلام فى عصر العلم ص ١٧٦ ، ١٧٧ بتصرف يسير . و معلومة صحيح البخارى من كتاب الحديث و المحدثون ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ بتصرف .

و قد أدرك أعداء الإسلام ما للسنة من خطورة فى الدين . و ما لها من دور فى حفظ القرآن و صون العقيدة فوجهوا أسهمهم نحوها طاعنين تارة فى النبى ﷺ شخصاً ، و تارة طاعنين فى كلامه ﷺ ، أو فى صحابته و التابعين ممن نقلوا لنا سنة النبى ﷺ ، حتى يتمكنوا من فصل المسلم عن مصادر دينه الأصلية ، فيسهل بعد ذلك السيطرة و التحكم فى الأمة .

و تعددت المؤلفات و الكتب التى تبرز حقدهم على السنة النبوية ، و كثرت مطاعنهم و شبهاتهم عدداً ، الأمر الذى افتتن به بعض المسلمين ممن جهل حقيقة دينه فجاراهم فى كلامهم ، و ردد مزاعمهم و أفكارهم ، و وصل الحال إلى أن رأى بعض هؤلاء – فصل السنة و إبعادها كمصدر تشريع و الاكتفاء بالقرآن ، و تناسوا بأن القرآن لا يؤخذ بتمامه دون السنة ، و بدون السنة يعطل القرآن ، و هذا ما أراده الأعداء للجهلاء ، فلا أخذوا بالقرآن و لا أخذوا بالسنة و كانوا كمن خسر الدنيا و الآخرة و ذلك هو الخسران المبين .

و كما أفادت الخطابة من القرآن الكريم أفادت من السنة النبوية أيضاً « و قد بدا ذلك واضحاً فيما أضافه الحديث الشريف إلى اللغة من ثروة من المعانى و الأساليب التى كانت تعد من النبى ﷺ إبداعاً و ابتكاراً مثل قوله : « حمى الوطيس » (١) . ، « رفقاً بالقوارير » (٢) .

---

(١) متفق عليه / البخارى على الفتح ك الجهاد و السير ب / قوله تعالى « و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » ، مسلم ك الجهاد و السير ب / غزوة حنين .

(٢) متفق عليه / البخارى ك الأدب ب / كنية المشرك ، مسلم ك الفضائل ب / رحمة النبى للنساء .

فضلاً عما أكسبه الحديث للغة من تهذيب قريب من تهذيب القرآن ، فسهل ألفاظها ، و رقق أساليبها » (١) ، و عظمت به التراكيب ، و جملت به التعبيرات مما لا ينكر أثره فى الخطابة .

و قد أثرى الحديث النبوى موضوعات الخطابة إلى حد بلغت به الذروة ى الكمال مع ما أضافه القرآن فى هذا المجال ، و بثراء الموضوعات ثرت لأفكار ، و بثراء الأفكار تتولد المعانى و تتعاظم ، و تنطلق الألسنة لتعبّر و تزدان بذلك كله الخطابة ، و لو أضاف الحديث موضوعات متعلقة بشخص النبى ﷺ وحده لكفى ذلك من أثر .

« فما من خطيب إلا و يرطب لسانه فى خطبه بشئ مما أثر عن الرسول ﷺ تيمناً بقوله و استرواحاً للسامعين ، و ليكسبوا كلامهم روعة ، و ليستشهدوا بكلامه ﷺ على صحة ما يدعون » (٢) ، فأصبحت السنة للخطباء معيناً لا ينضب ، و زاداً لا ينفد ، و مداداً لا يجف ، و بحراً زاخراً باللآلئ و الدرر . يفوز بها من أحسن الغوص فيه و التعامل معه .

الزاد الأدبى :

إذا ما تطلع الإنسان لفصاحة اللسان ، و رغب فى بلاغة البيان فلابد من أن يلم بروافد هذه الفصاحة ، و مظان هذه البلاغة .

---

(١) الخطابة / الشيخ أبو زهرة ص ٢٦٣ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٣ .

و إذا ما كانت البيئة التي يعيشها الإنسان ذات تأثير في فصاحة لسانه و تقويم بيانه ، و إذا ما كان للقرآن و السنة عظيم الأثر في ذلك فإن مما يصقل الملكة اللغوية لدى الإنسان أيضاً التزود بالثقافة الأدبية و اللغوية سواء كان ذلك عن طريق مجالسة البلغاء و الحكماء و الأخذ عنهم بسماعهم و مجالستهم ، و سواء كان ذلك بالاطلاع على مؤلفاتهم و كتبهم ، سواء كانت نثراً أو شعراً شريطة أن يكون الاطلاع واعياً و القراءة مستوعبة .

« فالأدب بشعره و نثره ، و أمثاله و حكمه ، و وصاياه و خطبه ، مهم للداعية ، يثقف به لسانه ، و يجود أسلوبه ، و يرهف حسه ، و يقف على أبواب من العبارات الرائقة ، و الأساليب الفائقة ، و الصور المعبرة ، و الأمثال السائرة ، الحكم البالغة ، و يفتح له نافذة على الروائع و الشوامخ ، و يضع من القلوب أحسن موقع و أبلغه » (١) .

و قد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام ، فقال رسول الله ﷺ « إن من البيان سحراً ، و إن من الشعر حكماً » (٢) .

« و قد سمع النبي ﷺ الشعر من أكثر من شاعر و استجاده و استزاد

---

(١) الخطابة بين النظرية و التطبيق د / عمارة ص ٦١ .

(٢) رواه أبو داود / راجع عون المعبود جـ ١٣ ص ٣٥٤ ط السلفية جـ ٢ ط ١٩٦٩ ، و قال الحافظ بن قيم الجوزية الحديث سكت عنه المنذري .

منه ، و كان من أصحابه شعراء معروفون مثل حسان بن ثابت ، و كعب بن مالك ، و غيرهم » (١) .

و لا يخفى ما للأدباء و الشعراء من دور فى إثارة الهمم و تحريك الأحاسيس ، فيكون الأدب و الشعر لديهم ملكة يستطيعون بها توجيه المخاطبين ، و يكون كلامهم عندئذ نثراً كان أو شعراً ، عاملاً مهماً في نصرة الحق و مجابهة الظلم أو العكس ، و فى إرساء المبادئ أو اقتلاعها ، و فى غرس الأخلاقيات الفاضلة أو إفسادها ، مما تتحرك له النفس البشرية و تتشربه العقول و القلوب .

و من هنا فإن الأدب الذى نقصد – نثراً أو سعراً – : هو الأدب المضبوط بأخلاقيات الدين . الأدب الذى يهذب النفس ، و يستقيم به السلوك ، و يرقى به الذوق فلا ينحدر ، و يعلو به الإنسان و لا يندثر .

لابد أن تكون الكلمة – شعراً أو نثراً – منضبطة بضوابط الكلمة فى الإسلام .. الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت و فرعها فى السماء . و بذلك تخرج كل كلمة تستثير فى النفس مكامن الشهوة و الإفساد ، و تحرك العقل نحو التطاول و الإلحاد ، هذه الكلمة الخبيثة التى تحمل معانى الهدم للأخلاقيات ، و ضياع القيم و المروءات لا دخل لها فى الفصاحة إذ أنها من الوقاحة ، و لا تمت بصلة إلى البيان إذ إنها تزيين شيطان ، و لا تشارك فى بناء الخطيب لا من بعيد و لا من قريب .

---

(١) ثقافة الداعية د / القرضاوى ص ط الرسالة بيروت ط ١ / ١٩٧٨ .

الإعلام :

لا يخفى ما للإعلام من تأثير فى الأفراد و الجماعات ، فربما كان أداة توجيه و إرشاد ، و ربما كان أداة تدمير و إفساد ، و عند الشعوب المتحررة يخضع الإعلام فى سياسته لما يتفق مع مصالحها و يخدم أهدافها ، و يربى أبناءها ليكون إعلاماً مثمراً و هادفاً ، أما الشعوب الحائرة التى لا تملك قرارها ، و فقدت عزتها و سيطرتها نجد أن سياسة إعلامها تخضع لأعدائها ، فهم للإعلام يديرون ، و للعقول و الأفكار يحركون .

و قد أدرك أعداء الأمة من أمد بعيد ما للإعلام من صولة فى توجيه الشعوب فعملوا جاهدين فى إحكام السيطرة على مؤسساته ، و الأخذ بقيادته و إدارته ، حتى أصبح إعلاماً يخدم أهدافهم ، و يخضع الشعوب لإرادتهم ، و أصبح الإعلام لا يمت إلى الإسلام بصلة إلا فيما ندر .

إن التقدم العلمى الذى نعيشه اليوم إعلامياً ، زاد من خطورة الإعلام – سواء كان مرئياً أو مسموعاً أو مقروءاً – فأصبح تناقل الأفكار ، و ذيوع التيارات ، و نشر التوجيهات لا يكلف الإنسان شيئاً إلا ضغطة زر ، مما يعطى للإعلام مهمة خطيرة فى بناء الأمة أو تدميرها .

و عن دور الإعلام فى تقويم النطق و فصاحة اللسان فلا يخفى أن « لأجهزة الإعلام دورها البارز فى أخذ النشئ بعزائم الأمور فى هذا الباب تمكيناً لملكة البيان .. إنها أجهزة مفروضة على الإنسان .. تطرق عليه الباب

و تقتحم عليه فراشه بما تملكه من وسائل ، و ما تبثه من أفكار و أساليب ، و من ثم فاختيار أسلوبها ليكون عربياً ملتزماً أوفق بمصلحة شبابنا » (١) .

إن الاتصال بين هذه الأجهزة و الإنسان لا يعترف في تأثيره بسن أو ثقافة أو جنس أو دين ، فكل يتأثر حسب وضعه و ظروفه ، فهذا يتشرب فكراً ، و هذا يحفظ كلاماً ، و هذا يحفظ لازمة ، و هذا يقلد إشارة ، ...

فلا عجب أن يصبح صغارنا أحفظ لكلمات الأغاني و الألحان من غيرها ، فهي تلقى عليهم بكرة و أصيلاً ، آناء الليل و أطراف النهار في صورة تأخذ بالمدارك و تبهر الأعين ، و لا عجب أن نستحدث قاموساً – يعرفه شبابنا – جديداً لألفاظ جديدة ، و لغة جديدة كل فترة بل و كل يوم ! ، و لا يخفى ما لذلك من أثر في عيوب النطق و اللسان .

لا عجب أن يستهجن البعض من الشباب اليوم الفصحى ، و يتهرب من العربية ، بعد أن فسد الذوق اللغوي ، و تبلد الحسي و الشعور لما استبدل المجتمع بلغة القرآن لغات أخرى يروج لها إعلامه و ينطق بها شبابه ، فاستبدلوا الغث بالسمين . فضاعت هويتهم ، و شوهت معالمهم ، فأنى لنا أن نحصل على الخطيب البارع وسط هذا التيه ، و معلوم بأن فاقد الشئ لا يعطيه ؟ !

إن ضياع اللغة مؤذن بضياع شعوبها ، و على قدر ما يدخل اللغة من

(١) الخطابة في موكب الدعوة د / عمارة ص ٧٠ .

فساد على قدر ما يتسرب إلى النفوس من ضعف ، و لذا فإن عودة الإعلام العربية لغة القرآن لهو خطوة على طريق البحث عن الذات ، و استعادة التمكن ، و تنمية الطاقات و التحرر من القيود و الأغلال التى تعوق عن التقدم و تحقيق الآمال .

سعة ثقافة وشمول اطلاع :

من الصفات الهامة التى ينبغى أن تكون فى نفس الخطيب سعة الثقافة ، و شمول الاطلاع .

فقد سبق أن بينا علاقة الخطابة بالعلوم الأخرى ، خاصة بعلوم الاجتماع ، و المنطق ، و علم النفس ، و كانت العلاقة بين الخطابة و هذه العلوم تجمع بين التأثير و التأ... ، إلا أن وشائج القربى قد جمعت بين الخطابة و بين ما يتصل بحياة الناس من علوم بصورة أوضح و أعم .

و من هنا فإن الخطيب ينبغى عليه مراعاة هذه العلاقات و الوشائج بين الخطابة و سائر العلوم ، هذه المراعاة لا تقف عند حد الاعتراف بهذه العلاقات ، و لكن ينبغى أن يترجم هذه العلاقات إلى تفاعل مع هذه العلوم بتحصيل واع ، و معرفة واسعة فتُربى لديه ثقافة واسعة ، و اطلاع شامل على جميع المعارف .

هذه الثقافة و هذا الاطلاع لا نطالب الخطيب فيهما أن يكون فى درجة المتخصصين فى هذه العلوم . بل إنه يكفى إلمام بأساسيات هذه المعارف ، و مفاتيح هذه العلوم الأمر الذى يؤهله للكلام فيها عند الحاجة ، و يستطيع توظيفها لخدمة خطابته .

و يتفاوت القدر الذى ينبغى تحصيله بين كل علم و آخر على حسب ما يخدم الخطابة و الدعوة .

إن الداعية فى موضوعاته ينطلق من واقع المجتمع و حياة الناس ، و بطبيعة الحال لا تعرف هذه الموضوعات و جهة واحدة ، و لا تتبع تياراً بعينه ، بل إنها تتعدد و تختلف تبعاً للزمان و المكان و الظروف و الأحوال و الأحداث ، و كذا طبائع البشر و سمات المجتمع ، و من هنا فحتماً سيواجه موضوعات تعالج قضايا متنوعة تبعاً لواقع مجتمعه ، فربما تحدث فى السياسة أو فى الاقتصاد أو فى الاجتماع أو فى علم النفس أو فى الطب أو فى الفلك أو فى التاريخ أو فى التطور العلمى أو ...

و فى ذلك لا يتحدث كالمتخصصين فى هذه العلوم ، بل إنه يتحدث بلسان الخطيب و قلب الداعية . فيأخذ منها ما يقنع العقول ، و يستميل القلوب ، و يمكّن لدعوته ، و ما دام الأمر كذلك فلابد إذاً من زاد متنوع من هذه الثقافات و المعارف يفى بالغرض و يحقق الرجاء .

يقول الشيخ على محفوظ « إن الخطابة تتناول جميع الشئون الدينية و الدنيوية ، و مسالك القول فيها متشعبة كمسالك الكتابة . فكما يكون الكاتب ملماً بكل العلوم كذلك يكون الخطيب ، و لهذا لا يسمى من يخطب خطبة محفوظة أو يجيد الخطبة فى شئ دون غيره خطيباً ،. فلو برع بعض الخطباء فى نوع من أنواع الخطابة كالسياسية أو القضائية فإن هؤلاء لا يسمون خطباء على الإطلاق إلا إذا أحسنوا سوى ما برعوا فيه ، و إن كان دونه » (١) .

---

(١) فن الخطابة ص ٤٤ .

إن سعة الثقافة تكسب الخطيب قوة و تمكناً ، و من ثم ثباتاً و رسوخاً يستطيع بثقافته و اطلاعه خوض غمار أى موضوع ، و الحديث فى أي فكرة ، لا يخش من تغير الأحداث ، و لا يرهب فجاءة المواقف بما لديه من زاد يستطيع أن يواجه به الناس فى أى وقت و فى أى ظرف .

و من هنا فالثقافة الواسعة تقى الخطيب شر الحرج فى مواقف عدة : فقد يحصر الخطيب عند تغير موقف ، فيشعر بتفلت المعلومة ، و انفكاك الذهن ، و اضطراب النفس بسبب قصر تحضيره على موضوع معين ، أو كلام معين فلما تغير الحال ساءت عنده الأحوال .

و لك أن تتخيل صورة خطيب لا يملك سعة ثقافة ، و لا يملك اطلاعاً ، و قد جهز نفسه ليتحدث عن نعمة الزواج ، ليس فى ذهنه دونها ، و إذا به يدخل المسجد ليجد جنازة ينتظر المصلون الصلاة عليها و سماع الخطبة .. !! .

إن الخطابة ليست بالمرتقى السهل البسيط ، بل إنها من أصعب الأمور ، لذا ينبغى أن يعد الخطيب عدة تناسب رهبة هذه الوقفة ، و نبل هذه الرسالة .

« قيل لعبد الملك بن مروان : عجّل إليك الشيب يا أمير المؤمنين ! قال : و كيف لا يعجل علىّ ، و أنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة

أو مرتين ، أو قال : شيبنى صعود المنابر ، و الخوف من اللحن » (١) .

« حقاً إن الخطيب يعرض على الناس عقله ، و يعرض عليهم ما عنده من تجربة أو فكرة أو عقيدة . الحياة كلها مجاله و ميدانه ، فهو فى السياسة محتاج إلى التاريخ ، و الدين ، و الاقتصاد ، و القانون ، و الاجتماع ، ... و فى الدين مفتقر إلى التعمق فى مسائله ، و إلى التاريخ ، و دراسة أحوال المجتمع و نظمه و عاداته .. و فى القضاء يستمد من الشرائع و القوانين ، و علم النفس ..

و هو فى الخطب كلها يغترف من اللغة و الأدب ، و كلما استبحرت ثقافته و استفاضت قراءته ، غزرت معانيه ، و سمت أفكاره ، و قويت أدلته » (٢) .

و تختلف أولويات الإلمام بالجوانب الثقافية تبعاً للمجال الذى يعمل فيه الخطيب ذاته ، فهناك من الثقافات ما يمثل فى حياة الخطيب أصلاً ينطلق منه ، و يبنى عليه ثقافات أخرى تأتى فى درجة الأهمية فى المرتبة الثانية .

فالخطيب فى المسجد تمثل الثقافة الإسلامية بالنسبة له حجر الزاوية ، و نقطة الانطلاق التى ينطلق منها ، « و الثقافة الإسلامية هى الثقافة التى محورها الإسلام ، مصادره ، أصوله ، علومه المتعلقة بهذه الأصول المنبثقة عنه ، و هذا أمر منطقى ، فالداعية الذى يدعو إلى الإسلام لابد أن يعرف ما

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٢٧٦ .

(٢) فن الخطابة د / الحوفى ص ١٧ .

الإسلام الذى يدعو إليه الناس ، و لابد أن تكون هذه المعرفة يقينيه عميقة لا سطحية مضطربة ، و لهذا كان لابد أن تكون هذه المعرفة عن الإسلام من مصادره الأصلية و ينابيعه المصفاة بعيداً عن تحريف الضالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين ، و بهذا يكون الخطيب الداعية على بصيرة كما أراد الله لرسوله ﷺ و لمن تبعه و اهتدى بهديه » (١) . ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢) .

هذا النوع من الثقافة هو المرجعية الأصلية التى يرجع إليها الخطيب فى تناول قضاياه و فى اكتساب معارفه و تحصيل ثقافاته المتعددة ، فالثقافة الإسلامية هى ميزان الثقافات المتنوعة الأخرى يمرر الخطيب هذه الثقافات على هذا الميزان فما وافقه أخذه الخطيب و عظمه ، و ما خالفه لفظه و قومه ، و بذا تكون الثقافة الإسلامية هى طريق الوعى و الرشد بالنسبة للخطيب المسلم .

و تأتى الثقافات المتعددة أهمية بعد الثقافة الإسلامية بالنسبة للخطيب و منها الثقافة الأدبية و اللغوية ، « فالثقافة الأدبية لازمة لزوم المقاصد و الغايات ، و الثقافة اللغوية لازمة لزوم الوسائل و الأدوات » (٣) .

---

(١) ثقافة الداعية د / القرضاوى ص ٩ مؤسسة الرسالة ط ١ / ١٩٧٨ .

(٢) سورة يوسف – عليه السلام – ١٠٨ .

(٣) ثقافة الداعية ص ١١٤ .

و قد تحدثنا عن أهمية هذا النوع بالنسبة للخطيب عند حديثنا عن فصاحة اللسان كشرط من شروط الخطيب و صفة من صفاته .

و تأتى الثقافة التاريخية كأحد أهم الثقافات فى حياة الخطيب ، « فالتاريخ ذاكرة البشرية و سجل أحداثها ، و ديوان عبرها ، و الشاهد العدل لها أو عليها . و التاريخ يوسع آفاق الدارس ، و يطلق على أحوال الأمم و تاريخ الرجال ، و تقلبات الأيام بها و بهم ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله فى المجتمعات بلا جور و لا محاباة .. ..

و لا يعنى ذلك بالضرورة أن يكون الخطيب موسوعياً فى التاريخ العام ، لأنه لا يتصور أن يدرس إنسان تاريخ البشرية كافة ، حتى و لو كان متخصصاً ، فكيف بغير المتخصص ؟ ! .

لقد علمنا القرآن أن نكتفى من التاريخ بما هو كاف لنا ، و ألا نأخذ منه أكثر ما نحتاجه فى الاستدلال و الاستشهاد » (١) .

قال تعالى : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٢) . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ١٦٤ .

(٣) سورة غافر ٧٨ .

و من هنا جاء القصص القرآنى مؤكداً على مواطن العبرة ، و شواهد الاستدلال خادماً الهدف الأول الذى سيق من أجله . ألا و هو الهدف الدينى . ، و لم يكن القصص القرآنى من قبيل السرد التاريخى ، و الحكاية المجردة ، بل رسمت كل آية من كل قصة عبرة ، و وضع كل مقطع منها دلالة .، و حكى القصص المتكرر فى مواضعه شواهد مختلفة ، و أبعاد متنوعة و معالم جديدة بما يرفع التكرار ، و يفجر المعانى و العبر .

يقول الشيخ سيد قطب : « و كان من آثار خضوع القصة فى القرآن الكريم للغرض الدينى أن تعرض بالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، و من الحلقة التى تتفق معه ، فمرة تعرض القصة من أولها ، و مرة من وسطها ، و مرة من آخرها ،، و تارة تعرض كاملة ، و تارة يكتفى ببعض حلقاتها ، و تارة تتوسط بين هذا و ذاك ،. حسبما تكمن العبرة فى هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الهدف التاريخى لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصى سواء ، فسارت القصة و هدفها الأول هو الهدف الدينى » (١) .

« فخطيب المسجد يحتاج إلى حقائق التاريخ الإسلامى ، و ملامح فى تاريخ الإنسانية عامة ليجنب المسلمين مخاطر الافتراء على الدين و مخاطر تزوير تلك الحقائق ، و ليتمكن من تصحيح المفاهيم الخاطئة مع ضرورة

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم أ / سيد قطب ص ١٦٢ ط دار الشروق ط ١٤ / ١٩٩٣ م .

الابتعاد عن الجدل فى الأمور التى لا تقدم و لا توخر فى نهضة الأمة و لا فى كبوتها » (١) .

و من الثقافات الهامة فى حياة الخطيب ما يعرف بالثقافة الإنسانية و هى ما تتصل بتحصيل و معرفة العلوم الإنسانية كالاجتماع و علم النفس و المنطق و الاقتصاد ، و غيرها من علوم تتصل بحياة الإنسان و تخاطبه فرداً و مجتمعاً ، و تخاطبه فى أزمانه المتنوعة و أماكنه المختلفة . مما يتيح للخطيب فرصة التعرف على طبيعة مجتمعه الذى يعمل فيه ، فيستطيع بما تكشف له هذه العلوم من معارف أن يخاطب الناس على قدر عقولهم و أن يحرك قلوبهم مراعياً فى ذلك ظروفهم و أحوالهم و طبائعهم و غير ذلك مما تكشفه العلوم الإنسانية .

هذه العلوم الإنسانية ليست حكراً على الخطيب و الداعية ليطلع عليها و يتثقف بها ، بل إنها فى متناول كل قارئ ، و الأمر يحتمل أن يكون فى هذه العلوم من أباطيل و افتراءات على الإسلام و المسلمين وضعها أعداء الإسلام عمداً بقصد إفساد المسلمين و تزييف تراثهم و حضارتهم و تشويه معالمهم ، و يتزايد وقوع هذه الأمور فى تلك العلوم خاصة فى العصور المتأخرة و نشاط تيارات الغزو الفكرى ضد أمة الإسلام ، هذه الشبهات و تلك الأباطيل قد يفطن لها بعض القراء و قد لا يفطن لها الكثير ، خاصة و أنها توضع كالسم فى العسل . هذا الكثير يحتاج إلى من يأخذ بيده ،

---

(١) ثقافة الداعية ص ١٠٢ بتصرف يسير .

و هنا يتجلى دور الخطيب أهمية و يعظم أثراً ، خاصة و أنه لابد أن يكون على رأس المتبصرين بهذه التيارات ، الواعين لهذه الافتراءات بما يملكه من ثقافة إسلامية واسعة و أصيلة يستطيع بسهولة أن يمرر عليها هذه المعارف الإنسانية فيكشف غثها و سمينها ، حقها و باطلها ، فيضئ الطريق للناس ، و يكشف لهم عن طريق الهداية و الرشاد .

يقول د / القرضاوى : « إن لهذه العلوم – الإنسانية – فى كثير من الأحيان رشحات ضارة على الثقافة المعاصرة ، و سموماً تنفثها فى شتى المجالات ، و لا يكاد يسلم منها كتاب أو مجلة أو صحيفة أو إذاعة أو غيره من أدوات الإعلام ، و من لم يعرف مصادر هذه الرشحات و السموم لا يستطيع أن يقاومها بأسلوب علمي رصين ، و هذا اللون من العلوم يخضع لكثير من التفسيرات تبعاً للمدارس المختلفة ، و تبعاً لفكر الدارس و ثقافته و اتجاهه ، و قد تتسرب إليها الإسرائيليات الحديثة مثل إسرائيليات(فرويد) فى علم النفس ، و (ماركس) فى علم الاقتصاد ، كما تسربت إلى كتبنا من قبل الإسرائيليات القديمة .

و هذه العلوم فيها مجال رحب للذاتية و الاستنتاج الظنى لأن موضوعها الإنسان المتحرك و ليس المادة الجامدة ، و لذا وجب أن تقدم هذه العلوم للطلاب الدعاة و لخطباء المساجد بأقلام إسلامية مأمونة لا يخشى معها من

تأثير الغزو الفكرى و الإسرائيليات الحديثة على عقولهم » (١) .

و تأتى الثقافة العلمية من الأدوات التى ينبغى أن يتسلح بها الخطيب اليوم . هذه الثقافة التى تتصل بما يقوم على الملاحظة و التجربة ، و يخضع للقياس و الاختبار من علوم و معارف كعلوم الفيزياء ، و الكيمياء ، و الأحياء ، و الجيولوجيا ، و الفلك و غيرها مما يتصل بعلوم الأرض و الهواء و الماء ، كذا علوم التكنولوجيا و ما يتصل بها ، كذا علم الطب و الصيدلة و التشريح و غيرها .

و لا نطالب الخطيب بالتعمق فى دراسة هذه العلوم كالمتخصصين فيها ، فإننا لا نطالبه أن يكون طبيباً أو فلكياً أو كيمائياً أو فيزيائياً .... و إنما نطالبه بتحصيل معرفة من هذه العلوم كى تخدم رسالته ، و تفعّل دعوته ، و تكشف له عن واقعه المتجدد ، و قضاياه المعاصرة .

إننا نقرأ اليوم و نسمع عن (الاستنساخ) ، (تأجير الأرحام) ، و الكشف عن الأنساب عن طريق ما يسمى (DNA) الشرائط و الجينات الوراثية) و غير ذلك ، و كذا نسمع عن أمصال و ألقاح تغير فى حالات الإنسان و فى وظائف أعضائه ، و كذا نسمع و نقرأ عن ظواهر كونية فى الأرض و غير الأرض تحتاج إلى دراية و علم ، و الخطيب مطالب بأن يلم

---

(١) ثقافة الداعية بتصرف يسير ص ١٢١ .

شيئاً عن ذلك كله يمكنه من استخدامه فى رسالته ، خاصة و أن هذه الأمور مما يشغل الإنسان و يحتل نصيباً وافراً من عقله و حياته .

إن الحقائق العلمية الحديثة التى يكشف عنها العلم كل يوم تمثل آيات بينات و دلائل واضحة على قدرة الله – عز و جل – ، هذه القدرة التى تحتاج من الخطيب لبيان و إيضاح ، ليؤمن الكافر ، و يهتدى الضال ، و يتوب المذنب ، و يزداد الذين آمنوا إيماناً ، فكيف يتحدث الخطيب عن ذلك دون الوقوف على هذه الحقائق و تلك الاكتشافات ؟ ! .

و فضلاً عن حديثه عنها فإن هذه الحقائق العلمية تكشف عن الأسرار القرآنية الكثيرة و التى لم تكن معلومة قبلها بما يؤكد على جانب من جوانب عظمة القرآن الكريم ألا و هو الإعجاز العلمى ، و الذى أصبح يمثل أفضل السبل الدعوية اليوم خاصة مع الغرب الذى يظل علماؤه عشرات السنين و ربما أكثر وصولاً إلى حقيقة علمية ثم يجدونها مسطرة فى كتاب الله – عز و جل – منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان تحكى عظمة و بهاء ! ، و ما يقال فى القرآن الكريم يقال عن السنة الصحيحة المطهرة فى هذا الباب .

و إلمام الخطيب بمثل هذا يعطيه زاداً خطابياً و دعوياً هاماً ليفتح به آذاناً صماً و أعيناً عمياً و قلوباً غلفاً .

و تتأكد الثقافة العلمية فى هذا العصر كزاد ينبغى للداعية و الخطيب من

الإلمام به قدر المستطاع خاصة و أن الوسائل الحديثة فى الإعلام و الاتصال جعلت من العالم قرية واحدة ، فتلاشت الحواجز بين الأمم و المجتمعات ، مما سهل نقل الفكر و العقائد ، و الحق و الباطل ، و الضار و النافع . الأمر الذى اغتنمه أعداء الإسلام ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، بالتشويش على عقيدتهم ، و الضرب في جذورهم و أصولهم الفكرية ، و لا أدل على ذلك من المواقع المتعددة على (شبكات الإنترنت) و التى تعرض سيلاً من الشبهات و المطاعن ، و المفتريات و الأباطيل حول الإسلام و مصادره و أصوله ، و النبى ﷺ و صحابته ، و كذا ادعاءاتهم على التاريخ الإسلامى و اللغة العربية و غير ذلك ، مما يتلقفه أبناء المسلمين و تتباين معه ردود أفعالهم : فالبعض يصدق و يُفتن ، و البعض يتوقف و يسأل ، و البعض ثابت مطمئن واثق بما لديه من علم و معرفة يستطيع بهما كشف الزيف و تفنيد الأباطيل .

و ثلاثتهم يحتاجون إلى بصيرة الخطيب و وعيه ، يحتاجه البعض الأول ليرفع عن قلبه الران و يحرره من الفتن ، و يحتاجه البعض الثانى ليجيبه عن أسئلته و استفساراته فيجد عنده الجواب الشافى ، و يحتاجه البعض الثالث لتزداد ثقته ، و اطمئنان قلبه .

و لن يتحقق شئ من ذلك كله دون ثقافة علمية واعية فى الخطيب حتى

يستطيع استخدام هذه (التكنولوجيا) الحديثة ، فيقف بذلك على ثغر من ثغور الإسلام يذب عنه و يدافع عن أمته ، فضلاً عما يحدثه ذلك من توسيع قاعدته الدعوية لتشمل العالم كله . مما يسهل له الدعوة إلى الله – تعالى – على بصيرة عبر هذه الدوائر و الشبكات .

يقول د / القرضاوى : و الثقافة العلمية مهمة لأسباب عدة أهمها (١) :

١ – إن بعض ما ينسب إلى العلم و تحتويه كتبه و مقرراته يتخذ اليوم وسيلة للتشكيك فى الدين مثل نظرية (النشوء و الارتقاء) فى الكائنات الحية التى تعرف بنظرية (التطور) (لداروين) و غيره .

فلابد إذن من معرفة شئ عن مثل هذه النظرية ، و قيمتها من الناحية العلمية ، حتى يتمكن الخطيب من اتخاذ موقف محدد منها ، بناء على دراسة صحيحة لا على خيالات أو إشاعات ، و الحكم للشئ أو عليه فرع عن تصوره .

٢ – إن من الحقائق العلمية ما يمكن استخدامه فى تأييد الدين ، و توضيح مفاهيمه و نصرة قضاياه و الذب عنه بدفع شبهات خصومه و مفتريات أعدائه .

٣ – إنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة .

و كما يحتاج الخطيب إلى الثقافة الإسلامية بصورة أساسية و يحتاج إلى

---

(١) ثقافة الداعية ص ١٣٢ .

غيرها من ثقافات أدبية و لغوية ، و تاريخية ، و علمية ، يحتاج أيضاً إلى ثقافة واقعية و نعنى بها الثقافة المكتسبة من معايشة الواقع . واقع الخطيب كفرد ، و واقع المجتمع ، و الأمة و البيئة ...

فالخطيب ينظر إلى هذا العالم كمنظومة واحدة كل يؤدى فيه رسالة و دوراً سواء كان فرداً أو مجتمعاً أو أمة ، فلابد أن ينظر فى موقعه من هذه المنظومة ، و أن ينظر لمجتمعه و مكانه من هذا البناء ، و ينظر فى أمته و مكانتها فى هذا العالم ، و لذا « فعلى الخطيب أن يعرف عالمه الذى يعيش فيه ، و ما يقوم عليه من نظم و ما يسوده من أديان و مذاهب و ما يحركه من عوامل ، و ما يصطرع فيه من قوى و ما يجرى فيه من تيارات و أحداث ، و ما يعانى من متاعب ، و بخاصة العالم الإسلامى بآلامه و آماله ، و أفراحه و مآسيه ، و مصادر قوته و عوامل ضعفه ، و قبل ذلك بلده الصغير و بيئته المحلية و ما يسودها من أوضاع و تقاليد ، و ما تقاسيه من صراعات و مشكلات ، و ما يشغل أهلها من قضايا و أفكار » (١) ، لابد أن يلم الخطيب بكل ذلك حتى لا يكون منفصلاً عن واقعه ، بعيداً عن مجتمعه ، مغيباً عن عالمه ، فيحدث الناس بما لا يفهمون ، و يخاطبهم بما لا يعرفون ، و يعطيهم ما لا يحتاجون ، فيضيع جهده هباءً ، و خطابته سدى .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٠ بتصرف .

و من الحديث عن الثقافة و الاطلاع و ما يمثلانه فى حياة الخطيب نود أن نؤكد على ما يلى : -

١ - أهمية سعة الثقافة و شمول الاطلاع بالنسبة للخطيب ، ففى سعة الثقافة ثراء للعقل ، و تتسع بها مدارك الذهن ، و تغزر المعانى ، و تنمو ملكة البلاغة و التعبير ، و يكتسب من المعارف ما يؤهله للحديث فى أى موضوع و تحت أى ظرف مما يجعله عصرياً يخاطب الناس على قدر عقولهم و من واقع حياتهم .

٢ - لا يقف دور سعة الثقافة و شمول الاطلاع عند حد تفتيح المدارك و غزارة المعانى و توسيع المعارف و نمو ملكة الفصاحة ، بل يمتد تأثير الثقافة الواسعة و العلم المتبحر إلى ذات الإنسان نفسه و أخلاقياته و سلوكياته ، فبالثقافة الواسعة يكتسب الخطيب قوة فى شخصيته ، و ثباتاً فى قلبه ، و رسوخاً فى وجدانه ، كما أنه ينطبع بأخلاق العلماء و يسلك مسلك المستنيرين ، فالثقافة فى أصلها من الحذق و المهارة و التهذيب ، فيأتى الحذق و المهارة تكسبه وعياً و إدراكاً ، و يأتى التهذيب ليهذب النفس ، و يقوّم السلوك ، و يعلو بمكارم الأخلاق فى نفس الخطيب ، و الإنسان كلما ازداد علماً ازداد خلقاً و تهذيباً بما يحدثه هذا العلم فى نفسه ، فيكتسب الخطيب بسعة علمه تهذيباً فى اللسان و التعبير ، و قوة فى العقل و يقظة فى الضمير ، و حسن خلق و طيب نفس و لين جانب و غير ذلك مما يتحلى به

العلماء و يعرف به الأصفياء و الأتقياء ، و من هنا كان العلماء بعلمهم أعرف الناس بخالقهم و أشدهم له خشية : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) فقد أعطاهم العلم الفرصة لإدراك حقائق الأشياء ، و الوقوف على أسرار خلق الله و إبداعه فى الأرض و السماء ، فأكسبهم ذلك خشية من الله فى قلوبهم ، و استنارت بصيرتهم ، و زكت عقولهم و نفوسهم .

يقول الشيخ سيد قطب فى تفسير الآية « و العلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب الكونى العجيب ، و من ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته ، و يدركونه بآثار قدرته . و يستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه . و من ثم يخشونه حقاً ، و يتقونه حقاً ، و يعبدونه حقاً ، لا بالشعور الغامض الذى يجده القلب أمام روعة الكون ، و لكن بالمعرفة الدقيقة ، و العلم المباشر .. » (٢) .

٣ – خطيب المسجد يحتاج بالدرجة الأولى إلى الثقافة الإسلامية ثم تتدرج بعد ذلك الثقافات رتبة و أهمية بعد الثقافة الإسلامية .

هذه الثقافات على اختلافها سواء كانت تاريخية أو أدبية لغوية أو علمية

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٩٤٣ بتصرف يسير .

أو إنسانية ينبغى أن تنطلق من الإسلام و نعود إليه ، بمعنى أن يكون الإسلام هو المرجع الذى يُرجع إليه الخطيب هذه الثقافات فيصحح خطأها ، و يقيم عوجها ، فيكون لها ميزاناً ، و يكون له عليها حساباً و سلطاناً ، و ينبغى أن تستخدم هذه الثقافات فى خدمة الإسلام ، فهو هدف المسلم الأول و الأخير يعيش به و يعيش له ، و من هنا و حتى تؤتى هذه الثقافات أكلها ينبغى أن تتكامل فيما بينها لخدمة الإسلام و المسلمين .

قوة العقل وسرعة البديهة :

لا يكفى فى إعداد الخطيب الاستعداد الفطرى ، و فصاحة اللسان ، و الثقافة الواسعة ، فكل ذلك لا يغنى عن قوة عقل ، و حضور بديهة حتى يتسنى له تفعيل ما ذكرناه من صفات إذا توفرت فى نفسه .

فالخطيب لن تتحقق له فصاحة اللسان و قوة البيان دون عقل واع ، و لن يتحقق له الاستعداد الفطرى و الجرأة على مواجهة الجماهير دون هذا العقل ، و لن يستطيع تحصيل الثقافات المتعددة ، و المعارف المتنوعة دون قوة ذاكرة و ذكاء فى تحصيل .

فبدون هذه القوة العقلية تُعْقَد طلاقة اللسان و ينحبس البيان ، و إذا ما ملك جرأة على المواجهة و فطرة على المشافهة تكون هذه الجرأة فى غياب القوة العقلية تهوراً ، فتضر أكثر مما تنفع .

و الثقافات الواسعة التى يجب على الخطيب التعمق فى بعضها ، و تحصيل بعض آخر على قدر طاقته و ما يتطلبه عمله ، هذه الثقافات حتى تؤتى أكلها لابد من صحبة العقل اليقظ و الإدراك الواعي ، و القريحة المتقدة .

فبالعقل يميز الخطيب الغث من السمين ، و الحق من الباطل ، و يكشف الضار من النافع ، و بالعقل يمتلك أدوات الاستدلال و الاستنباط فى سوْق الأدلة ، فيستطيع نظم المقدمات و استنتاج النتائج ، و بالعقل يستطيع

الإنسان أن يكشف عن حقيقة واقعة و واقع مجتمعه ، و واقع جمهوره و مدعويه .

و بالعقل يستطيع الخطيب أن يستفيد من خبرات السابقين ، و يحذو خطا الأقدمين البارعين . فالعقل يربط ماضيه بحاضره ، و أمسه بغده ، فيستفيد من الماضي لخدمة الحاضر و من الحاضر لخدمة المستقبل .

إن الخطيب يتخير كلماته ، و ينتقي تعبيراته ، و يصطفي موضوعاته ، و يعالجها برؤية خاصة ، يراعى فيها أحوال الناس و ظروفهم ، و لن يتحقق ذلك و لن يصل إلى الإجادة و الإبداع دون تعقل واع و بصيرة نافذة ، لذا لا نطلب توافر مجرد العقل العادى ، بل نطلب عقلية فذة حتى تقنع غيرها من عقول ، و لن يتم ذلك إلا إذا كانت عقلية قيادية راشدة .

فالعقل لدى الخطيب هو الضابط لعمله ، و هو الذى يحدد مدى فاعلية هذا العمل و مدى نجاح الخطيب فيه و تأتى سرعة البديهة تتبع مدى تمكن القوة العقلية فى الإنسان ، هذه البديهة الحاضرة التى تكسب الخطيب حسن تصرف فيما يفجأه من أمور و يبغته من مواقف ، « فكثيراً ما يتعرض الخطيب لسؤال أو مقاطعة أو اعتراض ، و قد يستوحى الخطيب من ظروف الحالة و أحداثها ، و قد يحس من سامعيه نَبْوَة أو ملالة فيغير مجرى حديثه ليسمعهم نغمات شائقة ، و لهذا ينبغي أن يكون حاضر الذهن سريع البديهة ، لا يتحبّس فى جواب ، و لا يتلعثم فى دفع اعتراض .

و لقد يكون سداد الخطيب فى الرد على مقاطع أو معارض أقوى تأثيراً فى نفوس السامعين من الخطبة كلها » (١) .

فسرعة البديهة تخلص الخطيب من العديد من المواقف الحرجة و تبقى له صورته الثابتة في أذهان المستمعين ، فقد يقاطع الخطيب بسؤال أو استفسار يغيب عن ذهنه فتسعفه بديهته مثلاً بقوله : سؤال هام و تأتى الإجابة عليه فى الكلام و ما عليك إلا حسن المتابعة . أو يقول : لأهمية هذا السؤال خصصت للإجابة عليه الخطبة القادمة . حتى يستحضر ذهنه و يستجمع نفسه .، أو يقول لمقاطعه : نعم سؤالك هام ، و لكن ما نحن بصدده أهم فاحرص على الأهم حتى يوافيك المهم . و غير ذلك من حسن التصرف و التخلص الذى ينبع من البديهة الحاضرة .

« و ربما أخطأ الخطيب فى حادث يرويه أو خبر يقصه ، فينبرى له بعض سامعيه بتصحيح ما أخطأ فيه ، فيتخلص من ورطته بسرعة خاطره تخلصاً لبقاً لا يسبب له حصراً و لا يهز صورته عند جمهوره .

و من أمثلة ذلك ما حدث لوكيع بن أبى أسود التميمى ، أحد الأبطال المسلمين فى فتوح بخارى مع قتيبة بن مسلم ، فقد كان يخطب مرة فى جند

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٢ .

العرب بخراسان ، فقال : إن الله خلق السماوات و الأرض فى ستة أشهر . فرد عليه أحد السامعين بقوله : فى ستة أيام . فقال وكيع و أبيك قلتها و إنى لأستقلها .

و كان (لويد جورج) أحد خطباء الانجليز المعروفين يخطب و يعد بالحكم الذاتى فيقول : سنعطى الحكم الذاتى لكندا ، و سنعطيه لأيرلنده ، و سنعطيه .. و لم يتم الكلمة حتى قال أحد السامعين . لجهنم . فرد عليه الخطيب بقوله : هو ذاك . يعجبنى أن يتذكر كل إنسان وطنه » (١) .

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٣ ، ٢٤ بتصرف يسير .

خامساً: مراعاة أحوال المخاطبين .

الخطيب والمجتمع .

ما من مهنة أو حرفة يعمل بها الإنسان إلا و يحتاج إلى التعرف على طبيعة ما يعمل به أو ما يعمل فيه . فالطبيب حتى يشخص داء المريض يسأل عن ظروفه ، و ظروف مرضه ، و أعراض هذا المرض ، و تاريخه ، و ربما سأل عن بيئة المريض و أهله و مجتمعه ، و الفلاح فى أرضه لابد أن يتعرف على طبيعة هذه الأرض ، و طبيعة سقيها ، و ما يناسبها من بذور ، و كيفية رعايتها إعداداً و غرساً و سقياً و جنياً إلى غير ذلك . و الصانع فى مصنعه ، و المهندس أمام أدواته و (ماكيناته) و غيره ، لابد من التعرف على طبيعة هذه الأدوات ، و عمل هذه (الماكينات) ، حتى يستطيع أن يحسن استخدامها فتحسن هى إليه بإنتاج وفير .

و الخطيب فى التعرف على أحوال المخاطبين شأنه شأن هؤلاء ، و لكن المهمة أصعب ، و العبء أثقل ! فالجمهور أرضية الخطيب التى يواجهها ، و يريد تحريكها و تفعيلها حتى تثمر خيراً ، و نفعاً ، هذه الأرضية ليست كأرض الفلاح ، و لا مريض الطبيب و لا (ماكينة) المهندس ، فهذه أسهل فى التعامل إذ أن التعامل معها تعامل مع مادة لها خصائصها الثابتة ، و ظروفها التى لا يعتريها تغيير فيسهل وضع الضوابط ، و إحكام السيطرة عليها .

لكن الخطيب يتعامل مع جمهوره عقولا و أرواحا و نفوسا و قلوبا و أجساداً ، و لكل طبائعه و خصائصه ، و تختلف هذه الخصائص و الطبائع بين إنسان و آخر ، بل إنها تختلف فى الإنسان الواحد بين ظرف و آخر ، و وقت و وقت .

فالإنسان يختلف فى استعداداته و ملكاته من حال إلى حال ، و يختلف فى قبوله و إعراضه من وقت لوقت ، و من رضاه و سخطه ، و من صحته و مرضه ، و من نشاطه و كسله ، و من صفائه و كدره ، و من حيرته و ثباته ، و غير ذلك مما يتردد فيه الإنسان ، كل ذلك يختلف حسب الظروف و يتغير تبعاً للأحوال . و الخطيب مطالب أن ينفذ بكلامه وسط هذه الظروف و هذه المتغيرات للعقول فيقنعها ، و للأنفس فيزكيها ، و للأرواح و القلوب فيستميلها ، و للأبدان فيُفعِّل فيها الخير و النشاط و يدفع عنها الشر و الانفلات .

فما أصعبها من مهمة ، و ما أجهده من عمل ! ، و لكن ما أعظمها من رسالة !! .

و الخطيب حتى يتحقق له ذلك لابد من بصر و بصيرة ، من بصر و نعنى به الوعى لواقعه و أحوال مجتمعه و الدراسة المتأنية لطبائع النفس البشرية ، و ثقافة عالية و واعية بكل ما يتصل بهذه النفس البشرية حتى يتعرف على مداخلها و مخارجها ، فضلاً عن المعارف المتنوعة ، و الاستفادة من خبرات السابقين ، و كذا القوة العقلية و سرعة البديهة ، ......

و من بصيرة و نعني بها حسن العلاقة بالله - عز و جل - رب هذه الأنفس ، و خالق هذه الأرواح ، و مبدع هذه القلوب و الأبدان ، فحسن الاتصال بالله - عز و جل - يرزق الخطيب توفيقاً و رشداً ، يجعل للخطيب مكانة في نفوس الناس ، و حرارة تنبع من قلبه فتشع فى قلوبهم و نفوسهم هداية و إيماناً ، و طواعية و استجابة .

فالخطيب بوعيه و ثقافته و دراسته و جهده المستمر مع المجتمع و الجمهور آخذ بالأسباب ، و بحسن صلته بالله - تعالى - يأتى التوفيق ، و يُلْهَمُ بالقبول ، و تسرى كلماته فى الناس سريان التيار في الأسلاك ، لا يُشْعر بمروره لكن يُعْرَف بنوره .

و على الخطيب أن يضع نفسه كثيراً مكان المخاطبين حتى يشعر بما يشعرون ، و يدرك ما يحتاجون و ما يطلبون ، لا يكلمهم من برج عال و كأنه ليس منهم ، بل لابد أن ينصهر مع مجتمعه ، فيدرك عوامل الضعف و القوة ، و الاستجابة و الإنكار ، يقف على الطموح و الآمال ، و المتاعب و الآلام ، يقف على الرغبات و التطلعات ، و يقف على القضايا و المشكلات ، يقف على طبائع كل شريحة و ظروف كل بيئة ، ... و لن يأتى ذلك بمجرد قراءة الكتب و المؤلفات ، بل لابد من المعايشة الواقعية ، و الممارسة الحياتية .

« فالخطيب الناجح من امتزجت بروح السامعين روحه ، فكان هو و هم كطرفى تيار كهربى يلتقيان فيشع منهما ضوء و حرارة .

و السامعون من طبقات شتى و بيئات عدة ، فيهم الكبير و الصغير . و المتعلم و الأمي ، و الفقير و الغني ، و الخصم و الولي ، فعليه أن يمهد الطريق إلى إقناع هذا الجمهور المتباين و إلى التأثير فيه » (١)

يقول الشيخ علي محفوظ في صفات الخطيب « الحذق في إدراك مقتضى الحال ، و ملاحظة طوائف الناس ، فيتخير من الألفاظ ما يناسب كل طبقة ، و لا يجرح أحداً ممن يتحبب إليهم حتى تبقى لخطابته هزة في كل قلب و تستريح لمغزاها كل نفس ، و الحاذق من يعرف الطباع الغالبة على الجمهور ، فيأتي إليهم من ناحيتها إذ لا ريب أن لكل مقام مقالاً ، و لكل فريق من الناس خطاباً ، يليق بحاله و يوافق عقليته ، و يناسب سنه ، فلا يخاطب أشراف الناس و أوساطهم و سوقتهم بخطاب واحد ، فأولئك تكفيهم الإشارة ، و هؤلاء يحتاجون إلى بسط الكلام .

فعلى الخطيب أن يكون مع كل طبقة على مقدار مبلغها من الفهم و الاستعداد لقبول ما يريد غرسه في نفوسها من المعاني ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » (٢) .

---

(١) فن الخطابة د / الحوفي ص ٢٠ .

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس . و جاء عنه في كشف الخفا : أنه روى بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً جـ ١ ص ٦٢٢ ط مؤسسة الرسالة بيروت .

و عليه أن يراعى الأعمار فى خطابه مع شاب فتى السن ، و كهل تام القوة ، و شيخ وقور مهيب ، فإن لكل سن نزعة خاصة و أخلاقاً خاصة ، و أحوالاً تستدعى ما يناسبها من فنون الكلام ، و بذلك يكون حكيماً يضع الشئ فى محله ، و يداوى كل علة بدوائها » (١) .

و الخطيب ليس بدعاً فى مطالبته بضرورة مراعاة أحوال المخاطبين ، فهذا واجب كل داعية صاحب هدف و رسالة ، حتى يصل إلى هدفه ، و يحقق رسالته .

و إذا تأملنا فى مصادر الثقافة المتنوعة للخطيب خاصة الثقافة الإسلامية نجد مراعاة أحوال المخاطبين من الأسس التى ركز عليها مصدر هذه الثقافة الإسلامية و هو القرآن الكريم و السنة المطهرة .

فالقرآن الكريم و السنة المطهرة فيهما السند الشرعى لمراعاة أحوال المخاطبين ، و التأكيد العملى على أهمية ذلك . و هذا ما نود الوقوف عليه فى السطور التالية .

« تتجلى مشروعية مراعاة أحوال المدعوين و أهميتها فى إرسال الله تعالى الأنبياء و المرسلين من بين أقوامهم » (٢) .

---

(١) فن الخطابة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) مراعاة أحوال المخاطبين د / فضل إلهى ص ٧ بتصرف ط دار ابن حزم بيروت ط ١ / ٢٠٠٠ .

و فى ذلك نقرأ قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٤) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ...﴾ (٥) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ....﴾ (٦) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .....﴾ (٧) .

« و هكذا بعث الله تعالى إلى كل أمة نبياً منهم لأنهم كانوا أفهم لكلام النبى المبعوث إليهم ، و أعرف بحاله فى صدقه و أمانته و أقرب إلى اتباعه » (٨) و كان النبى المبعوث إليهم كذلك أعرف بهم و بمشكلاتهم و رغباتهم ، ... .

و يقول الله - عز و جل - فى كتابه عن النبى ﷺ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ...﴾ (٩) . ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .....﴾ (١٠) .

فالرسول عندما يبعث فى قومه الذى نشأ بينهم و عاش فيهم يكون صفحة

---

(١) سورة الشعراء ١٠٥ - ١٦٠ .

(٢) سورة الشعراء ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣)سورة الشعراء ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) سورة الشعراء ١٦٠ - ١٦١ .

(٥) سورة الأعراف ٦٥ .

(٦) سورة الأعراف ٧٣ .

(٧)سورة الأعراف ٨٥.

(٨) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٨٦ .

(٩) سورة آل عمران ١٦٤ .

(١٠) سورة الجمعة ٢ .

بيضاء لهم ، و يكون المجتمع صفحة بيضاء له كذلك ، فتتلاشى الحواجز التى تقوم بسبب جهل كل منهم لصاحبه ، و اختلاف كل منهم عن الآخر ، و ذلك آنس لنفوسهم ، و أيسر فى تبليغ الرسالة .

و لا أدل على مدى معايشة النبى ﷺ لقومه قبل البعثة من كلمات السيدة خديجة - رضى الله عنها - عند أول لقاء للنبى ﷺ بالوحى حيث قالت مطمئنة له ﷺ « و الله لن يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، و تقرى الضيف ، و تحمل الكل ، و تكسب المعدوم ، و تعين على نوائب الدهر » (١) ، هذه الكلمات تدل على مدى التغلغل الاجتماعى الذى عاشه النبى ﷺ قبل بعثته ، فلم تأت المعايشة من فراغ ، بل إنها تواصل مستمر ، و عمل دءوب مع طبقات المجتمع و شرائحه .

و تتجلى مراعاة أحوال المخاطبين أيضاً فى إرسال الله - عز و جل - أنبياءه بألسنة أقوامهم حتى يكون البلاغ واضحاً تام الوضوح بيناً تمام البيان ، فلا يحتج القوم على نبيهم بعدم فهم ، أو التباس شيئ فى أمر الرسالة ، و معلوم ما يمثله اختلاف الألسنة من عوائق فى التفاهم بين الناس ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٢) .

و لم يقف الأمر عند حد اختيار الله - عز و جل - الرسل من بين

---

(١) متفق عليه / البخارى ك بدء الوحى ب / كيف كان بدء الوحى إلى الرسول ﷺ و مسلم ك الإيمان ب / بدء الوحى .

(٢) سورة إبراهيم ٤ .

أقوامهم ، و يخاطبونهم بألسنتهم . بل إن الله – عز و جل – ، أيد كل نبى بمعجزات تتفق و أحوال من أرسل إليهم حتى تكون المعجزة واضحة ومفهومه و يزيد إعجازها ، و تتعالى عظمتها ، فكانت جل معجزات الأنبياء فى جنس ما برع فيه أقوامهم و فى ذلك يقول الحافظ بن كثير « بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى – عليه السلام – السحر و تعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، و حيَّرت كل سحَّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام و صاروا من عباد الله الأبرار قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

و أما عيسى – عليه السلام – فبعث فى زمن الأطباء و أصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ؟ ! أو على مداواة الأكمه و الأبرص ؟ ! و بعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد ؟ ! قال تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الشعراء ٤٥ – ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران ٤٩ .

و كذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء و البلغاء و تجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله – عز و جل – ، فلو اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، و ما ذلك إلا أن كلام الرب – عز و جل – لا يشبه كلام الخلق أبداً » (١) .

و مما يدل على أهمية مراعاة أحوال المخاطبين تعدد طرق الدعوة التى أمر الله – عز و جل – نبيه ﷺ في قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ....﴾ (٢) .

« فقد جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق : فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق و لا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، و القابل الذى عنده نوع غفلة و تأخر يدعى بالموعظة الحسنة ، و هى الأمر و النهى المقرون بالترغيب و الترهيب ، و المعاند الجاهد يجادل بالتى هى أحسن » (٣) .

و مما يدل أيضاً على ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين « أن الله – عز و جل – قد راعى أحوال العباد فيما شرعه لهم ، و يتجلى هذا فى تدرج

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

(٣) انظر التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ٣٤٤ و انظر المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٠٧ .

نزول القرآن الكريم ، و تشريع رخص عند القيام بالعبادات ، و استثناء أحوال الإكراه و الاضطرار و الخطأ عن الأحكام العامة ، و تعدد درجات الاحتساب ، و التنويع فى عقوبة الزنا ، و التخيير فى الكفارات » (١) .

و قد ضرب الرسول ﷺ القدوة الحسنة للدعاة فى الدعوة إلى الله - سبحانه و تعالى - ، فكان إمام الدعاة ، و قائد المرشدين . دعا إلى الله - تعالى - على بصيرة ، و بينّ القرآن أن هذه البصيرة يكتسبها الداعية إلى الله - تعالى - على قدر اتباع النبى ﷺ : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** .... ﴾ (٢) .

و من معالم البصيرة فى حياة النبى ﷺ مراعاته أحوال المخاطبين ، حتى تنفذ دعوته ﷺ للعقول و للقلوب من أيسر الطرق و أقربها و هذا هو السر فى تنوع ردوده و إجاباته ﷺ على العديد من صحابته ممن يسألونه سؤالاً واحداً و يطلبون منه وصية ، فالطلب واحد لكن الإجابات تعددت حسب ظروف كل واحد منهم و استعداداته و أحواله مما يؤكد على مدى غوص النبى ﷺ فى مجتمعه ، و مدى معايشته مدعويه . و من ذلك ما جاء عن سفيان الثقفى رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله . قل لى فى الإسلام قولاً

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك كتاب من صفات الداعية : مراعاة أحوال المخاطبين د / فضل إلهى ص ١٦ ص ٣٢ ط دار ابن حزم ط ١ / ٢٠٠ م ، الداعية وفقه الأولويات بحث منشور فى حولية كلية أصول الدين و الدعوة بطنطا عدد ١٤ / ٢٠٠٣ م للمؤلف .

(٢) سورة يوسف ١٠٨ .

لا أسأل عنه أحداً غيرك . فقال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١) .

و طلب أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وصية من رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شئ ، و عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، و عليك بذكر الله و تلاوة القرآن فإنه روحك فى السماء و ذكرك فى الأرض » (٢) .

و استوصى معاذ رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال له النبى ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، و اتبع السيئة الحسنة تمحها و خالق الناس بخلق حسن » (٣) .

و يأتى رجل إلى النبى ﷺ فيقول أوصنى : فقال ﷺ : « لا تغضب » فردد الرجل مراراً فلم يزد - عليه الصلاة و السلام - على قوله : « لا تغضب » (٤) .

و قد وعظ النبى ﷺ الصحابة موعظة بليغة ذرفت منها العيون و وجلت منها القلوب فقالوا يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع ، فأوصنا . قال ﷺ : « أوصيكم بتقوى الله ، و السمع و الطاعة و إن كان عبداً حبشياً ، فإنه من

---

(١) مسلم بشرح النووى ك الإيمان ، ب جامع أوصاف الإيمان .

(٢) المسند جـ ٣ / ٨٢ و قال عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد رجال أحمد ثقات جـ ٤ / ٢١٥ .

(٣) المسند ٥ / ٢٣٦ ، و قال عنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع الصغير و زياداته إنه حسن ح ٩٦ جـ ١ / ٨٦ .

(٤) البخارى على الفتح ك الأدب ب . الحذر من الغضب .

يعش منكم يرى بعدى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى و سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجز ، و إياكم و محدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، و إن كل بدعة ضلالة » (١) .

و قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ سئل أى العمل أفضل ؟ فقال ﷺ : « إيمان بالله و رسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قيل ثم ماذا ؟ قال « حج مبرور » (٢) .

و سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه النبى ﷺ أى العمل أفضل ؟ فقال ﷺ : « الصلاة لوقتها » قال ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قال ثم أى ؟ قال:الجهاد فى سبيل الله » (٣) .

و سأله أبو ذر رضي الله عنه أى الأعمال أفضل ؟ قال ﷺ : « الإيمان بالله ، و الجهاد فى سبيل الله » (٤) .

و روى عبد الله بن عمرو (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ سئل « أى

---

(١) رواه الإمام أحمد / المسند ٤ / ١٢٦ ، أبو داود ك السنة ب . فى لزوم السنة ، الترمذى ك العلم ب . الأخذ بالسنة و اجتناب البدعة ، ابن ماجة المقدمة ب . اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، الدارمى المقدمة ب . اتباع السنة و قال عنه الشيخ الألبانى صحيح .

(٢) البخارى على الفتح ك الإيمان ب . من قال إن الإيمان هو العمل .

(٣) مسلم بشرح النووى ك الإيمان ب . بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ح ١٣٧ .

(٤) المرجع نفسه ح ١٣٦ .

الإسلام خير ؟ » فقال ﷺ : « تطعم الطعام ، و تقرأ السلام على من عرفت و من لم تعرف » (١) .

و عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ سئل أى المسلمين خير ؟ فأجاب : « من سلم المسلمون من لسانه و يده » (٢) .

و هكذا نجد فى هذه الأسئلة و الاستفسارات اتحاداً فى مضمونها ، و تأتى الإجابات مختلفة من رسول الله ﷺ مراعياً فى ذلك أحوال السائلين و ظروفهم ، يراعى الفرد و يراعى الجماعة ، يراعى حديث عهد بالإسلام ممن أصبحت له قدم راسخة فيه ، يراعى معرفة و علم كل واحد ، و الظروف المحيطة بكل سائل ، و يعطى لكل منهم على قدر حاجته و ما يتواءم مع حالته ، يقول القاضى عياض فى ذلك : « أَعْلَمَ كل قوم بما لهم إليه حاجة و ترك ما لم تدعهم إليه حاجة ، أو ترك ما تقدم علم السائل إليه ، أو علمه بما لم يكمله من دعائم الإسلام و لا بلغه عمله . و قد يكون للمتأهل للجهاد الجهاد فى حقه أولى من الصلاة و غيرها ، و قد يكون له أبوان لو تركهما لضاعا ، فيكون بّرهما أفضل لقوله ﷺ : « ففيهما فجاهد » (٣) ، و قد يكون الجهاد أفضل من سائر الأعمال عند استيلاء الكفار على بلاد المسلمين (٤) .

---

(١) البخارى على الفتح ك الإيمان . ب . إطعام الطعام من الإسلام .

(٢) البخارى على الفتح ك الإيمان ب أى الإسلام أفضل .

(٣) رواه أبو داود فى سننه ك الجهاد ب / فى الرجل يغزو و أبواه كارهان .

(٤) عمدة القارى ١ / ١٨٩ .

إن الإلمام بأحوال المخاطبين و ظروفهم ، و التعمق فى معرفة حياتهم و معايشة واقعهم يعطى فرصة جيدة للداعية أن يصيب فى رأيه ، و أن يقنع و يؤثر بكلامه ، إذ أنه يتحدث مع المجتمع كصفحة بيضاء و كتاب مفتوح ، لا يغيب عنه شيئ من معالمه ، أما لو أنه لم يهتم بذلك فلن يستطيع قراءة مجتمعه ، و لن يصل لما عليه جمهوره و من ثم لن يستطيع أن يحرك ساكناً و لا أن يسكن متحركاً ، و يؤكد ذلك ما كان من أمر الشاب الذى جاء يستأذن النبى ﷺ فى الزنا فقال ﷺ : « « ادن » فدنا منه قريباً فجلس . فقال ﷺ : أتحبه لأمك ؟ ! » قال : لا و الله جعلنى الله فداءك يا رسول الله فقال : « و لا الناس يحبونه لأمهاتهم » قال : « أفتحبه لابنتك ؟ « . قال : لا : لا و الله جعلنى الله فداءك يا رسول الله فقال : « و لا الناس يحبونه لبناتهم » قال : « أفتحبه لأختك ؟ » قال : لا و الله جعلنى الله فداءك يا رسول الله فقال : « و لا الناس يحبونه لأخواتهم » قال : « أفتحبه لعمتك ؟ » قال : لا و الله جعلنى الله فداءك يا رسول الله فقال : « و لا الناس يحبونه لعماتهم » قال : « أفتحبه لخالتك ؟ » قال : لا و الله جعلنى الله فدءك يا رسول اله فقال : « و لا الناس يحبونه لخالاتهم » فوضع ﷺ يده عليه و قال : « اللهم اغفر ذنبه ، و طهر قلبه ، و حصن فرجه » فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيئ » (١) .

---

(١) مسند الإمام أحمد ك الأنصار ب . حديث أبى أمامة الباهلى و قال الشارح إسناده صحيح جـ ٦ ص ٢٣٦ .

هكذا استخدم النبى ﷺ الدواء المناسب مع هذا الشاب مراعياً تفتيح العقل و تبصيره بما غاب عنه ، و اغتنم النبى ﷺ ما كان فى بيئة الشاب من استقباح الزنا مع المحارم و الأقارب و عمَّم له التحريم ليشمل كل امرأة قربت أم بعدت « و كذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم – لبناتهم – لأخواتهم – لعماتهم – لخالاتهم » و المرأة لا تخلو أن تكون من هؤلاء ، فهى أم أو ابنه أو عمة أو خالة أو أخت .

و قد أراد أحد الدعاة استخدام هذا الحوار النبوى مع الشاب العربى فى إقناع شاب أمريكى بقبح الزنا و إقلاعه عنه فقال له : أترضاه لأمك ؟ فقال الشاب و لم لا ؟ ! أترضاه لابنتك ؟ فقال : و لم لا ؟ ! و رسمت علامات الدهشة على وجه الداعية (١) .

و السبب فى كلام الشاب الأمريكى هكذا هو بيئته التى لا ترى بأساً بممارسة الزنا مع المحارم و الأقارب و الأجنبيات على السواء ، فهو يعيش الحرية المنحرفة المخالفة للطبائع و الفطر ، فتكلم بلسان بيئته ، و تحدث بلهجة مجتمعه ، و هو ما لم يقف عليه الداعية عند دعوته ، و من هنا فوجئ بإجابة الشاب عليه .

---

(١) هذه القصة من بحث بعنوان الرواسب الفكرية و الاجتماعية – دراسة دعوية عن حقيقتها و أثرها و كيفية التعامل معها د / زيد عبد الكريم الزيد مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٢٩ عدد ١٢ ط الجامعة السعودية ١٩٩٤ م .

فلما لم يراع الداعية حال مخاطبيه لن يستطيع إقناعهم و التعرف على دواء أمراضهم و حل مشكلاتهم فقد يتفق مريضان فى مرض و يختلفان فى دواء ، و قد يتفقان مرضاً و دواءً و يختلفان جرعة و شفاءً .

و كان من عناية النبى ﷺ بمدعويه و مراعاة أحوالهم تعرفه عليهم و تفقد ظروفهم ، و كذا التعرف على أحوال الوافدين عليه ، و كذا مراعاته ﷺ أحوال من كاتبهم و أرسل إليهم (١) .

و من مراعاة أحوال المخاطبين الحرص على إفهامهم ، و بيان الكلام لهم ، و تخولهم بالموعظة و قصر الخطبة حتى لا يصاب الجمهور بملل أو ضجر و من ثم يأتى على حساب الموضوع و الموعظة .

و فى ذلك يضرب لنا الرسول ﷺ الأسوة الحسنة ليستنير الدعاة بهديه ، و يسترشد الخطباء بتوجيهاته ﷺ .

كان من آدابه ﷺ فى موعظته أنه كان يتخول الصحابة بها ، و يتلمس وقت نشاطهم و استعدادهم ، و يغتنم الفرصة فى الأحداث و الطوارئ و التى فيها يعلو التركيز و تشرئب النفوس لسماع التوجيه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا » (٢) « و المراد أنه كان يراعى الأوقات فى تعليمهم و وعظهم

---

(١) راجع تفصيل ذلك من صفات الداعية – مراعاة أحوال المخاطبين د / فضل إلهى المبحث الثانى فى الفصل الأول .

(٢) البخارى على الفتح ك العلم ب . ما كان ﷺ يتخولهم بالموعظة و العلم كى لا ينفروا .

و لا يفعله كل يوم خشية الملل » (١) .

و هذا من باب رحمته ﷺ و شفقته بمدعويه ، فإن النفس إذا أثقل عليها نفرت ، و ضجرت ، فلابد إذاً من مراعاة ظروف هذا المدعو و تلمس أحوال نشاطه حتى يجد الكلام عقلاً واعياً ، و قلباً مفتوحاً .

و كما راعى ﷺ أحوال المخاطبين بتلمس أوقات الاستعداد للنصح و التوجيه ، تلمس أحوالهم ، فلم تكن خطبة الرسول ﷺ طويلة بل إنها كانت قصيرة ، حتى يستطيع العقل وعيها و إدراك ما فيها ، فتكون الفائدة أعظم ، فرب كلام كثير لا يترك أثراً في نفس سامعه فلا يتجاوز أذنه ، و رب كلام مختصر يحرك النفوس و يؤثر في مستمعيه و ينفذ إلى قلوبهم ، و لذا حرص النبي ﷺ في تعليمه الصحابة مراعاة ذلك ، فلم يثقل عليهم يوماً ، الأمر الذى كان له عظيم الأثر في فهمهم و استيعابهم و من ثم تطبيق ما علموه ، و تنفيذ ما أخذوه .

و قد روى الإمام أحمد عن صحابة النبى ﷺ أنهم « كانوا يأخذون منه ﷺ عشر آيات .. فلا يأخذون فى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه من العلم ... فتعلموا العلم و العمل معاً » (٢) .

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ١٣٩ .

(٢) مصنف عبد الرزاق لأبى بكر عبد الرزاق الصنعانى جـ ٢ ص ٣٨٠ ت / حبيب الأعظمى ط / المكتب الإسلامي .

قصر خطبته ﷺ .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال « كنت أصلى مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصداً و خطبته قصداً » (١) أى بين الطول الظاهر و التخفيف الماحق » (٢) .

و عن واصل بن حيان . قال . قال أبو وائل : خطبنا عمار فأوجز و أبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان ! لقد أبلغت و أوجزت . فلو كنت تنفست : فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن طول صلاة الرجل ، و قصر خطبته مئنة من فقهه . فأطيلوا الصلاة و اقصروا الخطبة ، و إن من البيان سحراً » (٣) .

هكذا يؤكد حضرة النبى ﷺ على ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين توجيهاً بحاله و مقاله ، فكان ﷺ يؤثر قصر الخطبة ، و كان يوجه إليه لأنه دليل على فقه الخطيب و وعيه ، دليل على فقهه بواقعه و معايشته للناس و الإلمام بظروفهم ، و ما تأنس إليه النفس البشرية ، ثم إنه دليل علي مدي عقليته الواعية ، و استيعابه الدقيق ، و ذكائه فى جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة و هذه هي البلاغة ، فالبلاغة الإيجاز .

---

(١) مسلم بشرح النووى ك الجمعة ب / تخفيف الصلاة و الخطبة جـ ٣ مجـ ٦ ص ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه فى الشرح .

(٣) المصدر نفسه ح ٨٦٩ (٤٧) ص ١٣١ و مئنة أى علامة .

إن الناس أمام الخطيب يعتريهم العديد من الأحوال و الظروف الخارجية عنهم و الخارجة منهم ، فيهم من جاء يشغله عمله و كسبه ، و آخر يشغله همه و مرضه ، و آخر يشغله ولده و أسرته ، و فيهم الضعفاء و ذوو الحاجات ، ... هذا فضلاً عما يعتريهم من عوامل جوية تؤثر علي مدى الاستيعاب من حرارة و برودة ، و قد يكون المسجد فى مكان طبيعته الحركة الزائدة و الحل و الترحال . كمساجد المطارات ، و مساجد مواقف المركبات ، و قد يكون في مصنع و غيره مما يشغل فكر المخاطبين و ينبغى أن يراعى الخطيب ذلك كله .

« و إذا كان لابد من طول .. فليكن من حظ الصلاة .. لا الخطبة كما يقرر الحديث الشريف – حديث عمار – فالخطبة تمهيد يعد الذهن و القلب معاً للمثول المستغرق بين يدى الله تعالى .. بالصلاة » (١) .

و لذا لابد أن يكون التمهيد مناسباً لما هو أهم ، و لابد أن يكون جذاباً غير منفر و لا ممل مما يحدثه الطول الزائد .

و إذا ما احتاج الخطيب لطول الخطبة لكثرة المعانى و تشعب الموضوع و الفكرة فإن من المحمود عندئذ الإلمام ببعض فقرات موضوعه على المنبر ، ثم يكمل بعد الصلاة إن شاء ، فيعطى الفرصة حينئذ لأصحاب الأعراض و الأعذار ، أن يتخلصوا من أعذارهم و مشاغلهم ، و من جلس فهو صاحب

---

(١) الخطابة فى موكب الدعوة جـ ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ .

الذهن الصافى ، الذى يقدر على تمام الاستيعاب ، و بذا تظل صورة الخطيب مؤنسة فى نفوس الناس غير منفرة .

و من مراعاته ﷺ أحوال المخاطبين حرصه ﷺ على إفهام السامع كلامه بشتى الصور فكان كلامه ﷺ فصلاً متأنياً حتى يستطيع السامع متابعته ، كما كان ﷺ يهتم بإبراز مخارج الحروف و صفاتها ، و يميز بين حركاتها و سكناتها ، و غير ذلك مما يعين على فهم الكلام كاستخدام إشارة أو ضرب مثل ، أو إعادة الكلام حتى يستوعب السامع ، أو استخدام وسيلة إيضاح ، و غير ذلك .. مما يؤكد مدى حرصه ﷺ على إفهام المخاطبين و مراعاة أحوالهم .

فعن عائشة (رضى الله عنها) أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم (١) »« و السرد هو الإتيان بالكلام على الولاء و الاستعجال فيه ، و معنى الحديث أنه ﷺ لم يكن يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع » (٢) .

و روى الإمام أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « كان فى كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل (٣) »« و المراد أنه ﷺ ما كان يعجل فى

---

(١) البخارى على الفتح ك المناقب ب صفة النبى ﷺ .

(٢) فتح البارى جـ ٦ ص ٥٧٨ .

(٣) سنن أبى داود ك الأدب / ب الهدى فى الكلام و قال عنه الشيخ الألبانى فى الصحيح (صحيح) ٣ / ٩١٧ .

إرسال الحروف ، بل يلبث فيها و يبينها تبييناً لذاتها من مخارجها و صفاتها ، و تمييزاً لحركاتها و سكناتها » (١) .

و تصور أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) كلام النبى ﷺ و وصوله إلى العقول و الأفهام بقولها : « كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه » (٢) .

و فيما رواه الإمام البخارى عنها أنها قالت : « إن النبى ﷺ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه (٣) » و المعنى « أى لو عدّ كلماته أو مفرداته أو حروفه لأطاق ذلك ، و بلغ آخرها ، و المراد بذلك المبالغة فى الترتيل و التفهيم » (٤) .

و كان من هديه ﷺ فى التعليم و التوجيه إعادة الكلام و تكراره أحياناً للتأكيد على أهميته ، و حرصاً على إفهام السامع بصورة لا لبس فيها و من ذلك قوله ﷺ : « لا صام من صام الأبد ، لا صام من صام الأبد ، لا صام من صام الأبد » (٥) .

و منه قوله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » – ثلاثاً – قلنا :

---

(١) مرقاة المفاتيح ١٠ / ٨٧ .

(٢) سنن أبى داود ك الأدب / ب . الهدى فى الكلام و قال عنه الشيخ الألبانى فى الصحيح « حسن » ٣ / ٩١٧ .

(٣) البخارى على الفتح ك المناقب ب – صفة النبى ﷺ .

(٤) فتح البارى جـ ٦ ص ٥٧٨ .

(٥) مسلم بشرح النووى ك الصيام ب . النهى عن صوم الدهر .

- أى الصحابة - بلى يا رسول الله : قال : « الإشراك بالله ، و عقوق الوالدين » و كان متكئاً فجلس فقال : « ألا و قول الزور و شهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » (١) .

فللخطيب أن يكرر بعضاً من كلامه بغرض الإفهام و التوضيح ، خاصة لو كان الكلام مما يحتمل أموراً فله التكرار و التأكيد حتى يرسخ فى أذهان المستمعين ما يريد .

و التكرار على ذلك تكرار هادف ، لا يساق لمجرد التكرار و الثرثرة ، فإذا لم يكن للتكرار هدفاً يخدم الموضوع فلا داعى منه إذ يعد عندئذ منقصة فى بلاغة الخطيب .

و كان من هديه ﷺ تقريب الصورة للأفهام باستخدام الإشارة أو الرسم الإيضاحى و من ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) قال : « خط النبى ﷺ خطاً مربعاً ، و خط خطاً فى الوسط خارجاً منه و خط خططاً صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط و قال « هذا الإنسان ، و هذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - و هذا الذى هو خارج أمله ، و هذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، و إن أخطأه هذا نهشه هذا » (٢) .

---

(١) متفق عليه البخارى ك الشهادات ب / ما قيل فى شهادة الزور ، مسلم ك الإيمان ب / بيان الكبائر و أكبرها .

(٢) البخارى على الفتح ك الرقاق . ب / فى الأمل و طوله .

و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال « هذه سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه و عن شماله ثم قال : « هذه سبل » على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) » (٢) .

و فى بعض الأحيان كان يستخدم النبى ﷺ الإشارة فى كلامه حتى تزداد الصورة وضوحاً فى ذهن المستمع و من ذلك قوله ﷺ : « أنا و كافل اليتيم كهاتين فى الجنة » و أشار بالسبابة و الوسطى و فرج بينهما » (٣) .

و كان ﷺ يكثر من ضرب الأمثال حتى يقرب المعاني للسامعين و من ذلك قوله ﷺ : « مثل الذى يذكر ربه و الذى لا يذكر ربه مثل الحى و الميت » (٤) و قوله ﷺ « مثلى و مثل الأنبياء قبلى كرجل بنى داراً فأكملها و أحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها و يتعجبون و يقولون : لو لا موضع اللبنة . فأنا اللبنة و أنا خاتم النبيين » (٥) . و قوله ﷺ : « مثل المؤمنين فى

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٢) المسند ١ / ٤٣٥ و صحح إسناده أ / أحمد شاكر .

(٣) البخارى على الفتح ك الأدب / ب / فضل من يعول يتيماً .

(٤) البخارى على الفتح ك الدعوات ب / فضل ذكر الله - عز و جل - .

(٥) البخارى على الفتح ك المناقب ب / خاتم النبيين ﷺ .

توادهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى » (١) .

و الخطيب لا غنى له عن هديه ﷺ فى هذه الصور التى ترسم جانباً هاماً من مراعاة أحوال المخاطبين ، و تكشف عن مدى حرص الداعية على مدعويه ، مما يقرب المسافة بينه و بينهم ، و يزيد الإفهام و يتحقق الإقناع و من ثم تكون الاستجابة أسرع ، و التأثير أبلغ .

و قد أخذ السلف الصالح بتوجيهات النبى ﷺ فى ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين الأمر الذى أكسب كلامهم لطفاً ، و توجيهاتهم عطفاً ، فسرى كلامهم فى النفوس ، و كانوا بكلامهم فتحاً مبيناً للإسلام .

و كان من توجيهاتهم ما رواه البخارى عن أبى وائل قال : « كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكّر الناس فى كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم . فقال عبد الله : « أما أنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملّكم ، و إنى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا » (٢) و قد مرّ قريباً ما كان من عمار بن ياسر (رضى الله عنهما) فى خطبه (٣) .

و كان من وصايا أبى بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبى سفيان و كان على رأس

---

(١) مسلم بشرح النووى ك البر و الصلة ب . تراحم المؤمنين و تعاطفهم و تعاضدهم .

(٢) البخارى على الفتح ك العلم ب / من جعل لأهل العلم أياماً معلومة .

(٣) راجع ص ١٨٧ .

جيش وجهه أبو بكر رضي الله عنه إلى الشام قوله « و إذا وعظتهم فأوجز . فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً » (١) .

و ها هى أم المؤمنين عائشة تنصح عبيد بن عمير بأن يتحدث الناس بالموعظة حتى يملّوا فتقول : « ألم أُحَدَّث أنك تجلس و يجلس إليك ؟ » أن بلى يا أم المؤمنين » قال : فإياك و إملال الناس و تقنيطهم » (٢) .

و يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « حدّث القوم ما حدجوك بأبصارهم و أقبلت عليك قلوبهم ، فإذا انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدثهم » قيل : و ما علامة ذلك ؟ قال : إذا التفت بعضهم إلى بعض ، و رأيتهم يتثاءبون فلا تحدثهم » (٣) .

و قد نقل الإمام الحسن البصرى قول السلف كذلك بضرورة مراعاة نشاط الناس عند التحدث إليهم ، فقد روى الإمام الدارمى عن أبى هلال قال : سمعت الحسن يقول : « حدّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات » (٤) .

و كذا روى الحافظ البغدادى عن مطرّف قال : « لا تطعم طعامك من لا

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) شرح السنة للإمام البغوى ك العلم ب . التخول بالموعظة .

(٣) حد جوك أى رموك بها و المراد حثهم ما داموا يشترون ذلك ، يراجع شرح السنة للإمام البغوى ١ / ٣١٤ ك العلم ب . التخول بالموعظة .

(٤) سنن الدارمى ب . من كره أن يملّ الناس ح ٤٥٥ .

يشتهيه » أى لا تُحدّث بالحديث من لا يريده » (١) . و فى ذلك يبين العلامة البغدادى ضرورة توفر رغبة الناس و نشاطهم عند التحدث إليهم فيقول « حق الفائدة أن لا تساق إلا إلى مبتغيها ، و لا تعرض إلا على الراغب فيها ، فإذا رأى المحدّث بعض الفتور من المستمع فليسكت ، فإن بعض الأدباء قال : نشاط القائل على قدر فهم المستمع » (٢) .

و كما أكد السلف على ضرورة مراعاة أحوال الناس و ظروفهم أكد كذلك على ضرورة مراعاة عقولهم و أفهامهم ، فقد روى الإمام البخارى عن على (كرم الله وجهه) أنه قال : « حدّثوا الناس بما يعرفون و دعوا ما ينكرون . أتحبون أن يكذب الله و رسوله » (٣) « و المعنى حدثوا الناس بما يفهمون و اتركوا ما يشتبه عليهم فهمه » (٤) .

و هذا ما أكد عليه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله « ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (٥) .

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى و آداب السامع ١ / ٣٢٨ ح ٧٣١ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٣٣٠ .

(٣) البخارى على الفتح ك العلم ب / من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا .

(٤) المصدر نفسه بتصرف جـ ١ ص ٥٩ .

(٥) مسلم بشرح النووى المقدمة ب . النهى عن الحديث بكل ما يسمع .

و اعتبر العلماء أن من ضياع العلم مخاطبة من لا يفهمه و لا يعرفه به فعن عبد الملك بن عمير قال : « إن من إضاعة العلم أن يحدث به من ليس له بأهل » (١) .

و قال الإمام مالك : « طارح العلم عند غير أهله كطارح الزبر جد للخنازير » (٢) .

« و حاصل الكلام أن سلف الأمة كانوا يهتمون بتخول الناس بالموعظة ، كما كانوا يوكدون على ضرورة الإيجاز في الموعظة ، و مراعاة نشاط الناس و رغبتهم عند التحدث إليهم ، و فى هذا كله تتجلي عنايتهم بمراعاة أحوال المخاطبين » (٣) .

من هنا فإن الأمر يقتضى وعياً مستمراً و فقهاً لما عليه المجتمع من حول الداعية حتى يستطيع أن يتعرف على شرائح مجتمعه و أحوال الناس أفراداً و جماعات ، فالأحوال تتجدد و الظروف تتغير ، و الخطيب لابدله من (ميكروسكوب) خاص يكشف به هذه الأحوال و يفحص هذه المتغيرات حتى يستطيع التعامل معها .

لابد من أن « يحرص على التنوع و التجديد و الاختصار ، فهو يفكر جيداً في القضية التى يتناولها ، و يتعمق فى فهم العناصر واحداً تلو الآخر ،

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع رواية ٧٢٨ ، ١ / ٣٢٧ .

(٢) المرجع السابق رواية ٧٣٥ ١ / ٣٢٩ ، سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٣٠ .

(٣) مراعاة أحوال المخاطبين د / فضل إلهى ص ١٣١ .

و يدقق فى اختيار عباراته ، و فى كيفية مراجهة جماهيره بها و طريقة عرضها بدءاً و انتهاءاً فى إيجاز يعين على تثبيت الحقائق و جمع المشاعر و الأفكار حول ما يراد تعلمه فالكلام الكثير قد تضيع أهدافه و ينسى بعضه بعضاً ، و النفس البشرية لا تزكوا فيها المعانى إلا إذا أمكن تحديدها ، أما مع كثرة الكلام و بعثرة الحقائق فإن الأذهان تتشتت ، و تحدث فجوات فكرية و نفسية للمستمعين .. » (١) .

(١) علم النفس الدينى د / السعيد رزق و آخرون ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ بتصرف ط مختار للنشر ١٩٩٦ .

الخطيب و خصائص الجماعة .

الخطيب بحكم تعامله مع جمهوره لابد أن يتزود بثقافة الجماعات و معرفة ضوابطها و طبائعها و أحوالها فالحديث للجماعة يغاير الحديث للفرد ، « و الخطيب يعد مصدر طاقة فكرية و عاطفية بما لديه من ثقافة واسعة و قوة الحس و جيشان العاطفة و سرعة البديهة و براعة التصوير ، و هو يتغلغل إلى نفوس مستمعيه بقدر ما يعتقد فى صدق ما يدعو إليه و ينفعل به ، و يساعده على ذلك أن يلمّ باتجاهات المخاطبين و خصائصهم النفسية ليعرف روح الجماعة التى يخاطبها و يقف على مستوى تفكيرها ، و يعرف طبائع النفوس و عواطفها و ما يثير هذا المجتمع و يهدئه ، و ما يرضيه و يغضبه » (١) .

و الجماعة التى يواجهها الخطيب لها من الخصائص ما يميزها عن الفرد و التعامل معه ، و الفرد قد يكون له من الخصائص ما يتركه و ينسلخ منه عندما ينضم لجماعة مما يجعل للجماعة سلطانٍ على آحادها .

« و أهم ما تمتاز به الجماعة سريان روح عامة تصوغ أفرادها على شعور واحد ؛ و تفكير واحد ، فتعمل بطريقة تغاير طريقة الفرد ، سواء تشابه أفراد الجمع أم تغايروا فى أعمالهم و أخلاقهم و مداركهم ، و سبب ذلك انضمامهم و صيرورتهم جماعة واحدة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٣ بتصرف يسير .

و الجماعة يسيرها الوجدان أكثر مما يوجهها الفكر ، لأن الأفراد إن فرقت بينهم الخواص الفكرية المتأثرة بالتربية ، و الوراثة الخاصة ، و المواهب الطبيعية ، فإنهم يتشابهون فى الخواص الوجدانية و الشهوات ، و لذلك إذا اجتمع الأفراد فى مجتمع خضعوا للوجدان و العواطف و الأهواء ، و استترت قُدَرَهم العقلية ، و انزوى التفكير الفردى ، و صار السلطان للخواص المتشابهة النابعة من الوجدان » (١) .

و من هنا فالخطيب أحوج فى عمله مع الجماهير إلى الاستمالة و مخاطبة الوجدان أكثر منه إلى الحاجة و مخاطبة العقول ، إذ إنه بمخاطبته الجماهير يخاطب مكوناً جديداً من هذه الجماهير يختلف فى آحاده لكنه يحمل روحاً واحداً و عاطفة واحدة ، هى روح الجماعة .

« فالجماعة تنقاد بالاستهواء و التأثير أكثر مما تنقاد بالمحاجة و الإقناع ، و إنها إن كانت أقل من الفرد تفكيراً ، و أقل تروية ، فإنها أغزر شعوراً ، و أسرع استجابة ، هي قابلة للمقادة إلي الخير و إلى الشر ، فليستفزها الخطباء إلى الغيرة على الوطن ، و الذود عن الشرف ، و إلي التضحية لنصرة الحق و الدين و الذهب ، و الى التفانى فى كسب المجد و الفخار ، فإنهم حينئذ يهزون أوتار القلوب فيستجيب لهم الشباب و الشيوخ » (٢) .

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) فن الخطابة د / الحوفى ص ٥٠ ، ٥١ بتصرف .

فسلطان العقل في الجماعة يخفت دوره و يقل تأثيره ، و يغلب الشعور و الوجدان ، و تتحكم في الجماعة روح الميول و العواطف .

« و ينتقل التأثير بين أفراد الجماعة بالعدوى و المحاكاة كأن يصفق الصف الأول مثلاً فتصفق الصفوف الأخرى ، أو يهتف شخص فيردد الجميع هتافه ، و هم في عملهم هذا مدفوعون بشعورهم لا بتفكيرهم ، فالتأثر بالعدوى خارجي لا داخلي » (١) .

و نظراً لغلبة روح الجماعة و عواطفها على سلطان العقل و التفكير وجّه القرآن الكريم النبي ﷺ بأن يدعو المشركين بأن يقوموا مثنى و فرادى ليتفكروا في حقيقة ما يدعو إليه ، و في حقيقة النبي ﷺ . فجميعهم في أنفسهم يقرون للنبي ﷺ بالصدق و بالأمانة ، و هم من لقبوه فيما بينهم بالصادق الأمين ، و ما خلعوا عنه هذه المحامد قبل البعثة و لا بعدها ، و لكن مع ذلك في مجالسهم و اجتماعاتهم يغلب عليهم سلطان الجماعة الذي يحركه الأهواء و الميل لموروثاتهم ، و الهوى لانتصار عاداتهم و تقاليدهم ، و الرغبة في بقاء نفوذهم و زعاماتهم . و من هنا دعاهم النبي ﷺ إلى التفكير بعيداً عن سلطان هذه الجماعات حتى يتوفر لهم نظراً بلا هوى، و تفكيراً بلا ميل،فيقول لهم كما أمر القرآن :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٥١ بتصرف .

(٢) سورة سبأ ٤٦ .

« إنها دعوة إلى القيام لله . بعيداً عن الهوى . بعيداً عن المصلحة . بعيداً عن ملابسات الأرض . بعيداً عن الهواتف و الدوافع التى تشتجر فى القلب ، فتبعد به عن الله . بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة ، و المؤثرات الشائعة فى الجماعة ... » (١) .

و قيامهم مثنى أو فرادى فقط . لا ثلاثة و لا أكثر ، حتى لا يدخل العقل و الفكر فى دائرة سلطان من الجماعة فيخضع لها و لحكمها الذى يتبع من الانفعال و الشعور الغير الواعى الذى يأتى تبعاً للهوى و الميول و ليس لإعمال الفكر و العقول :

« (مثنى) ليراجع أحدهما الآخر ، و يأخذ معه و يعطى فى غير تأثر بعقلية الجماهير التى تتبع الانفعال الطارئ ، و لا تتلبث لتتبع الحجة فى هدوء .. (و فرادى) مع النفس وجهاً لوجه فى تمحيص هادئ عميق » (٢) .

و الخطيب حتى يستطيع أن يؤثر فى الجماعات ، و يستميلهم نحو رأيه ، لابد له من نفوذ و قوة شخصية يستطيع عن طريقهما لعب دور القائد لهذه الجماعة ، هذا الدور الذى لابد أن يتنصبه و إلا لن يسمع له أحد .

فالجماعات غالباً ما تنساق لآراء الزعماء و الرؤساء بحكم ما لهم من نفوذ و سيطرة ، لذا لم يكن من العجب أن يتصدى دائماً الزعماء و الرؤساء و أصحاب الجاه للرد على الأنبياء و المرسلين ، فالرعية تنساق بتبعيتها

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٩١٤ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٩١٤ .

لهؤلاء بلا ترو و لا تفكير ، و من هنا كان الرد لهؤلاء السادة و الكبراء على الأنبياء كما بين القرآن الكريم فى نحو قوله - تعالى - فى قصة نوح - عليه السلام - : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (١) ، ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ....﴾ (٢) .

و فى قصة هود - عليه السلام - : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) .

و فى قصة صالح - عليه السلام - : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ....﴾ (٤) .

و فى قصة شعيب - عليه السلام - : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ....﴾ (٥) .

و فى قصة موسى - عليه السلام - تولى فرعون و ملأه الرد و تحدثوا بلسان القوم : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...﴾ (٦) ، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧) ، ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ (٨) ، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

---

(١) سورة الأعراف ٦٠ .
(٢) سورة (المؤمنون) ٢٤ .
(٣) سورة الأعراف ٦٦ .
(٤) سورة الأعراف ٧٥ .
(٥) سورة الأعراف ٨٨ .
(٦) سورة الأعراف ١٢٧
(٧) سورة الشعراء ٢٣ .
(٨) سورة الشعراء ٢٥ .

لمجنون ﴾ (١) ، ﴿قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ (٢) ، ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ (٣) ، ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (٤) .

و لما نزل قول الله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (٥) صعد النبى ﷺ على الصفا و نادى : « يا بنى فهر. يا بنى عدى . ، حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فقال النبى ﷺ « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ ! » (٦) .

فالرؤساء و الزعماء هم أصحاب الفكر و القرار دائماً لدى أتباعهم و يحافظون على هذه المكانة لدى الرعية بالحق و الباطل ، و نراهم دائماً ينتصرون لآرائهم و أفكارهم و يرون دائماً صحة ما هم عليه ، فلا صواب إلا رأيهم ، حتى إن أبا جهل أملى عليه كبره و صلفه السخرية من أتباع النبى ﷺ و ضن عليهم بمجرد إعمال العقل فقال : « ألا تعجبون إلى هؤلاء و أتباعهم ! لو كان ما أتى محمد خيراً ما سبقونا إليه . أتسبقنا زنيرة

---

(١) سورة الشعراء ٢٧ .
(٢) سورة الشعراء ٢٩ .
(٣) سورة الشعراء ٣٤ .
(٤) سورة الزخرف ٢٣ .
(٥) سورة الحجر ٩٤ .
(٦) سبق تخريجه ص ٥٢ .

إلى رشـد ؟ ! - و زنيـرة إحـدى الإمـاء اللاتى سـارعن للدخـول فى الإسلام . (١) .

و قال الكفار من بنى عامر و تميم و غطفان و أسد و حنظل و أشجع لمن أسلم من غفار و أسلم و جهينة و مزينة و خزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاة البهم فنحن أعز منهم » (٢) .

و قد سجل القرآن هذه المواقف فقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (٣) .

و من هنا يتضح ما للملأ و أصحاب الزعامة من تأثير على الجماعات بما لديهم من نفوذ ، و لذا ينبغى أن يراعى الخطيب هذه الفئة فى كلامه - حتى لا يصطدم بها فيضيع كلامه - ، و فى لحظهم ، و لابد أن ينزل الناس منازلهم . فتجاهل مثل هذه الأمور يجعل من هؤلاء عدواً للخطيب ، فأنى له إقناعهم بعد ذلك . ! ؟ .

نفوذ الخطيب :

و ينبغى أن يتمتع الخطيب بقوة الشخصية ، و النفوذ البالغ ، حتى يحرى بأن يقود الجماعة ، فالإنسان بفطرته يتطلع لما هو فوقه لا إلى ما هو دونه ،

---

(١) شرح المواهب اللدنية للإمام محمد بن عبد الباقى الزرقانى المالكى جـ ١ ص ٢٦٩ ط دار المعرفة بيروت ٢ / ١٩٧٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن مجـ ٨ جـ ١٦ ص ١٢٦ .

(٣) سورة الأحقاف ١١ .

و إذا ما شعر الإنسان دونية فى الخطيب فلن يستمع إليه أبداً ، و من هنا فالنفوذ و قوة الشخصية من أهم العوامل التى يبنغي أن يتزود بها الخطيب و يزود بها ، و نعنى بذلك أن للخطيب دور ، و للمؤسسات القائمة على إعداد الخطباء و الدعاة دور أيضاً .

و مفتاح النفوذ يكمن فى شخصيته و إيمانه و عشقه لرسالته ، و قوته العلمية و ما يملك من حسن بيان و فصاحة لسان ، و ما يملكه من مهارات شخصية و أخلاقيات فاضلة يستطيع أن يكتسب احترام الآخرين بها .

و يساهم مظهر الخطيب فى هذا النفوذ ، فالمظهر الحسن المهيب يكسبه هيبة فى نفوس المستمعين ، و تاريخ الخطيب و مجده من العوامل الهامة لإكساب هذا النفوذ ، فكلما كان له باع و تاريخ فى عمله زاد نفوذه و قويت شخصيته و زاد تأثيره فى النفوس ، و هذا ما يلاحظ عند الاستماع لخطيب مغمور و آخر معروف و مشهور .

و للمؤسسات القائمة على إعداد الخطيب دورها الهام فى نفوذ الخطيب ، يبدأ هذا الدور باختيار أفضل العناصر للقيام بهذا الواجب الخطير ، أفضل العناصر نفسياً و عقلياً و جسمانياً ، أفضل العناصر موهبة و استعداداً و هذا يتأتى معرفته بالاختبارات المتنوعة ، فمن غير المعقول أن نختار للدعوة إلى الله ، و خطباء المجتمع من بين أقل الطلاب مستوى ، أو أقلهم رغبة فى هذا المجال .

و يستمر الدور لهذه المؤسسات فى دعم الخطباء و الدعاة بحسن الإعداد و التوجيه ، و توفير ما يثريهم علمياً و سلوكياً ، و كذا توفير وسائل العيش الكريم ، و الحياة المناسبة بقادة للمجتمع ، فليس من المعقول أن نطالب الخطيب بالإبداع و تهدده لقمة العيش ، أو نطالبه بالإجادة و هو مشغول بصراع الحياة يقول علماء النفس « الداعية (القائد) يساعد [illegible] ماعته فى حاجاتهم العلمية و الاجتماعية ، يحل مشاكلهم الخلقية و النفسية ، و لكى نرقى بمستواه ينبغى أن يمنح مكانة لائقة فى إدارة منطقته أو [illegible]) و أن يتم تقديره و احترامه باعتباره صاحب مسئولية و إدارة ، ... » (١) .

« و النفوذ الشخصى قوة (مغناطيسية) توهب قلة من الناس ، يسيطرون بها على غيرهم ، و يجذبونهم إلى آرائهم ، و كان هذا سلاح الأنبياء ، و ميزة من مزايا بعض الزعماء الخطباء ... .

و النفوذ الشخصى عصا الخطيب السحرية ، و الناس يحاكرون [illegible] النفوذ الشخصى عامدين أو مسوقين بفطرتهم ... » (٢) .

و كلما كان تاريخ الخطيب مشرفاً ، و ماضيه ناصعاً كان ذلك أدعى لقوة نفوذه و تأثيره فى المستمعين . فكلما كثرت صولاته و جولاته و [illegible]

---

(١) علم النفس الدينى د / غازى ص ٣٥٩ .

(٢) فن الخطابة د / الحوفى ص ٥٤ .

نجاحاته فى عمله كان ذلك أوقع فى نفوس الناس ، و أقرب إلى استمالتهم بما قر فى أذهانهم سلفاً عن براعته و قوته .

و من هنا فالنفوذ للخطيب ليس حقنة أو ملعقة دواء ما أن يأخذها أو يتعاطاها يمنح النفوذ ، بل إنه واقع اجتماعى معاش مع الناس ، و جهد و مثابرة ، و عمل دءوب مستمر ، و أخلاقيات و سلوكيات ، و غير ذلك مما يعطى الثقة فى نفس الجمهور من ناحيته ، و يمكن لمحبته فى قلوبهم .

هيئة حسنة و إشارة منضبطة :

حسن المظهر .

بطبيعة الحال أول ما يتكشف للجمهور من الخطيب هيئته و منظره ، و يتحدد الانطباع الأول لدى الجمهور عن الخطيب من ذلك ، فكلما كان حسن المظهر ، بهى الطلعة ، منمق الشكل ، جميل الملبس ، كان ذلك أدعى إلى انجذاب الجمهور إليه و أنسه به ، و إذا كان غير ذلك انطبعت صورة سيئة عن الخطيب فى ذهن الجمهور ، و ينتظر الجمهور سماعه حتى يؤكد حكمه أو يغير ما رسم له من انطباع سيئ بسبب المظهر السيئ .

« فحسن مظهر الخطيب أحد الأسباب المعينة على التأثير حين يراه المستمع فى صورة ترتاح لها العين قبل أن يبدأ حديثه و حينئذ يعيره انتباهه مستوعباً ذلك الحديث » (١) .

و الهيئة ذات تأثير قوى فى اكتساب النفوذ ، و لعل ذلك أول ما ينطبع فى نفس المشاهد عند رؤية رجل الشرطة أو القاضى أو المحامى عند مرافعته ، فكل منهم له ملبسه الخاص به ، و زيه الذى يفرده ، مما يكسبه هيبة و نفوذاً ، و من ثم يكون قد ملك أول أدوات الإقناع و الاستمالة ، فعلى الأقل ضمن انتباه المستمع إليه و متابعته بسبب مظهره الأخاذ .

و الناس قبل التحدث معهم كتاب مغلق لا ندرى ما فيه ، و لكن من الممكن

---

(١) الخطابة فى موكب الدعوة جـ ١ ص ٨٠ .

أن نخمن ما في هذا الكتاب من خلال مظهرهم الخارجي و الذي يمثل غلاف الكتاب ، فكلما كان مظهر الإنسان أنيقاً و قوراً تنامى التفكير إلى أهميته و مكانته و كذا العكس .

و تأتي درجة الاهتمام به على قدر هذا الإحساس و هذا التخمين ، و الخطيب يعمل جاهداً لاستقطاب انتباه السامعين و إيقاظ شعورهم فهو لا ينفك بحال عن استخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الغرض و منها حسن المظهر .

فالهيئة هي لسان حال الخطيب قبل لسان مقاله ، و مفتاح شخصيته قبل إلقاء بيانه ، خاصة إذا كان الخطيب يخطب في جمهور يسمعه لأول مرة .

و لا أعني بحسن الهيئة ضرورة غلو ثمن اللباس ، بل أعني ترتيبه و تنميقه حتى لا يحدث هرولة في شكل الخطيب ، و ليس بالضرورة ما غلا ثمنه يحدث حسن مظهر ، فهذا يتوقف على مدى ذوق الخطيب و حذقه في فنون زيّه و مظهره ، و لا بأس أن يخصص الخطيب لنفسه زياً يقوم فيه بعمله يهتم بشكله و أناقته و نظافته حتى يحافظ على جذب الناس إليه ، و عدم زهدهم فيه بسبب مظهره السيئ .

إننا نلحظ في حديث جبريل - عليه السلام - عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام و الإيمان و الإحسان أن قد جاء في وصفه كما أخبر عمر رضي الله عنه « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، و لا

يعرفه منا أحد ، .. فجلس و أسند ركبتيه إلى ركبتيه و وضع يديه على فخذيه ... » (١) .

هذه الأوصاف تكشف عن مدى انتباه الصحابة لهذا الضيف ، و الذى جذبهم إليه و شدهم نحوه . هو الهيئة و المظهر ، فهو فى زى حسن أخاذ معتنى بمظهره ، ثم يزداد التركيز بطريقة الجلوس ، و إسناد الركبتين إلى ركبتى رسول الله ﷺ و وضع يديه على فخذيه ، عندئذ وصل الانتباه لذروته فى نفوس الصحابة ، و تعاظم الشوق فى نفوسهم لإدراك السر ، عندئذ يبدأ التعليم بالمقال بعد أن كان التعليم بالهيئة و الحال .

كثيراً ما يبنى الناس أحكامهم لمجرد الهيئة و المظهر ، و يصنفون الناس رتباً و مكانة على حسب الشكل لا المضمون ، و الخطيب فى أمس الحاجة لاكتساب حكم إيجابى عنه من جمهوره بهيئته و شكله .

و لا يعنى ذلك الوقوف عند ذلك الحد من حسن المظهر ، بل إنه بداية الطريق فإذا ما صاحب حسن المظهر خطيباً ماهراً حاذقاً قد استكمل عدة الخطيب فلا شك من بلوغه العلا ، و لا شك أنه إذا لم يكن لديه عدة الخطيب فلن يسمن مظهره و لا يغنى من جوع .

إن النبى ﷺ و هو من أوتى جوامع الكلم (٢) و أفصح الناس حديثاً

---

(١) متفق عليه / البخارى ك الإيمان ب / سؤال جبريل النبى ﷺ ، مسلم ك الإيمان ب / بيان الإيمان و الإحسان و الإسلام .

(٢) سبق تخريجه ص ١٣٩ .

و أعظمهم بياناً و قد أوتى من الوقار و المهابة و النفوذ ما أوتى ، و مع ذلك كله كان ﷺ دائم الاهتمام بمظهره و هيئته - مع أنه فى غنى عن ذلك - حتى يربّى فى الأمة ذلك ، و يعلم من بعده أن ذلك من أخلاقيات الإسلام و آداب المسلم .

فعن جندب بن مكيث رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه ، و أمر علّية أصحابه بذلك .... » (١) .

و كان ﷺ يلبس العمامة و يخطب بها ، فعن عمرو بن حريث رضي الله عنه « أن النبى ﷺ خطب الناس و عليه عمامة سوداء » (٢) .

و تأتى توجيهات القرآن و السنة فى آداب اللباس و النظافة لترسم حسن المظهر و بهاء الطلعة فى نفس المسلم ، و الخطيب فى الأخذ بهذه التوجيهات آكد من غيره .

و إذا كان من مراعاة أحوال المخاطبين ضرورة التعرف عليهم و على أحوالهم فيعطيهم ما يناسب ظروفهم و يتواءم مع أفكارهم و استعداداتهم ، فإن حسن الهيئة فيه من انجذابهم نحو خطيبهم ما يثير الانتباه و يفتح المدارك ، فضلاً عما يحدثه فى نفس الخطيب من تعزيز ثقته فى نفسه ، و إكسابه مهابة فى أعين الناس مما يوفر عليه شوطاً فى إقناعهم و يختصر الطريق نحو استمالتهم .

---

(١) حياة الصحابة للعلامة الكاند هلوى جـ ٣ ص ٣٩٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٩١

الوقفة .

لا يخفى ما للرؤية المباشرة للمتحدث من أثر في نفوس المخاطبين ، فهذه الرؤية المباشرة التى تجمع بينه و بينهم لا تقف عند مجرد تلاقى الأجساد ، بل تستحيل بعد قليل إلى تلاقى الأرواح ، فيصبح اللقاء لقاءً حياً .

و لذا لابد من أن يشرف الخطيب على جمهوره من مكان يرتفع عنهم بعض الشيئ حتى يستمر التواصل المباشر بينه و بينهم ، و يمكنه هذا العلو من ملاحظة أفراد جمهوره ، و ما يعتريهم من تغيرات أثناء حديثه معهم .

و فضلاً عن المكان المرتفع فينبغي للخطيب أن يقف عند مواجهة جمهوره . هذه الوقفة تضفى عليه نفوذاً و فخامة ، كما أنها تكسب المستمعين احترامه لهم ، و تقديره إياهم ، مما يدفعهم إلى التجاوب معه .

و الخطيب فى وقفته ينبغى أن يحكى قيادة فى نفسه ، فلا يقف وقفة الذليل الخاضع ، و لا المقهور المنكسر بل يقف وقفة القائد لجمهوره ، فاتحاً صدره مقبلاً على الناس ، لا يهرب بنظراته منهم ، بل إن نظراته لابد أن تحمل قوة و شجاعة يشعر بها الجمهور ما أن ينظروا فى عينيه .

و عليه أن يتجنب فى وقفته ما يستهجن من كثرة الحركة و الالتفات ، و وضع يده خلفه أو داخل جيبه أو على رأسه ، أو يقف دون اعتدال فيشعر المستمع منه تعالياً و تكبراً و عدم اكتراث به .

فالخطيب عليه أن يظهر للناس لرؤيته ، و أن يمنع أى حواجز بينه و بينهم

، « و العرب فى خطابتهم كان يقف الواحد منهم على شرف من الأرض أو على ظهر دابة ، و كان يفخم منظره بلبس عمامة ، و الاعتماد على عصا أو قوس أو رمح أو نحوه ... ، و لم يخطبوا قعوداً إلا فى الزواج ، لأن هذا النوع من الخطابة أقرب إلى الحديث و الحوار ، و ليست به عاطفة جياشة يستدعى إظهارها أن يعتلي المتكلم نضداً » (١) .

و لنا فى هدى النبى ﷺ الأسوة الحسنة ، فقد مر بنا كيف صعد النبى ﷺ الصفا (٢) فى أول لقاءات الجهر بالدعوة و نادى فى بطون القوم بطناً بطناً ، فخطبهم من على الصفا ، واقفاً ، حتى يراه الجميع و يرى هو الآخر الجميع ، فيكون الفهم أعمق ، و الكلام أوصل ، فضلاً عن سهولة الإلمام بأى تصرف من الجمهور ، قد لا يتكشف له إذا ما كان هناك ثمة حواجز تمنع رؤيته .

و اتخذ ﷺ فى المدينة جذع النخل فخطب عليه حتى صنع المنبر فخطب على المنبر ، و عند ذلك حنَّ الجذع إلى النبى ﷺ و بكى و لم يسكت حتى أتاه النبى ﷺ فهدهده كما تهدهد الأم طفلها ، و قد روى ذلك بمعناه الإمام البخارى فى كتاب الجمعة فى باب أسماء الخطبة على المنبر (٣) .

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٦ بتصرف .

(٢) راجع ص ٥٢ .

(٣) البخارى على الفتح جـ ٢ ص ٤٦١ ح ٩١٨ .

و إذا كان الوقوف على المنبر أو الشرف و نحوه من الأمور الهامة التى ينبغى أن يراعيها الخطيب فينبغى أن لا يعلو هذا المنبر أو الشرف بدرجة كبيرة يفقد معها الخطيب التأثير و المشافهة ، و لذا ينبغى أن يكون الارتفاع مناسباً للقرب من الجمهور .

الضوء .

كما أنه ينبغى على الخطيب مراعاة تركيز الضوء و مصادره حوله حتى تزداد صورته وضوحاً ، و كلما كان الضوء مناسباً مركزاً بحيث لا يكون مبهراً ، و لا يشوش على الخطيب نفسه كان وقع الهيئة فى نفس المخاطبين أكثر و أكثر .

إننا نرى فى قاعات الاحتفالات (و السينما) عند عرض أفلام و غيره فتطفأ أنوار القاعة ، و يبقى الضوء المناسب على المسرح أو شاشة العرض أو الشخصية المتحدثة ، حتى يكون تركيز السامع و المشاهد فى هذه المنطقة فقط فلا ينشغل بغيرها ، فهذا أولى أن يتنبه له الخطيب حتى يتعاظم تركيز الناس معه .

الإشارة ودورها .

الإشارة من أهم العوامل مساعدة على إيصال المعانى و إيضاح المفاهيم ، فهى لغة منظورة أو لغة متحركة مفهومة .

و الجمهور بطبيعته يمل من ثبات صورة مخاطبه فترات طويلة بلا حركة

و بلا تغير ، فتغير الخطيب فى حركاته و استعانته بإشاراته من العوامل التى تدخل اللطف فى نفس الجمهور ، و تدفع عنهم الملل ، شريطة أن يكون تغيير الحركة هادفاً ، و الإشارة واعية .

و الإشارة لا يخفى ما لها من أهمية فى الإفهام الأمر الذى يغنى أحياناً عن الكلام ، و ها هى السيدة مريم - عليها السلام - لم يكن لها إلا الإشارة مخرجاً لما عادت بوليدها - عليه السلام - تحمله ، و يدور فى رأسها ما يكون من القوم عند رويتها بهذه الحالة - امرأة تلد طفلاً بلا زواج ، فطبعى أن ينصرف الذهن إلى ضرورة وقوعها فى الفاحشة - التى حتماً سيتصورها القوم مستهجنة ، و بالفعل كان ذلك .

يقول الله تعالى : ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾ (١) .

فجاءت الإشارة هنا تكفى مريم عليها السلام مؤنة الدفاع و المرافعات ، و يفهمها القوم كأبلغ لسان و أروع بيان ، و ينتقلون من خلال الإشارة إلى الطفل ليسمعوه فى دهشة و تعجب ، يبرئ ساحة أمه - عليها السلام - ، و يرسم آية و معجزة على رسالته - عليه السلام - .

---

(١) سورة مريم ٢٧ - ٢٩ .

و الإشارة فيها من الخطورة البالغة ما تشتعل بسببها حروب و تخرب بها ديار ، و أيضاً فيها من النفع ما يحقق الأمن و السلم و يجلب الإعمار .

و يكفى أن ثورة الاتصال اليوم تعتمد على الإشارة !

و لعل أبرز ما يدل على ذلك تخصيص الجيوش سلاحاً خاصاً يسمى « سلاح الإشارة » و الذى يعد من أهم الأسلحة فى الجيوش ، و ترتب الأسلحة عملها عليه ، و هو سلاح يستخدم الإشارة الصوتية أو الضوئية أو الذبذبات أو الترددات و غير ذلك مما يفهمه مستخدموه . و الإشارة يستخدمها الخطيب لمزيد من الإيضاح لكلامه و تأكيده ، و ربما استقلت بمعنى خاص توضحه بذاتها ، و هناك من إشارات التحذير و الترهيب ، و التقريب و التحبيب ، و الاستجابة و الإنكار ، و الإقبال و الإعراض ، و المدح و الذم ، .. و غير ذلك من لغة الإشارة .

ثم إن الإشارة تتعاون مع الكلام فى رسم انفعالات الخطيب و التى بدونها ربما يلبس الأمر على السامع .

و ربما أغنت الإشارة عن لفظ لا يليق بالخطيب التلفظ به ، فتكون الإشارة رسوله فى تصوير المعنى كما أن الإشارة عند الخطيب تحكى حركة و حيوية و تذهب عنه الجمود الذى يذهب بالانفعال و من ثم بروح الخطابة . كما أنها تقدم عوناً للخطيب فى ترد د نَفَسه و تنوع نبرات صوته ، و تساهم أحياناً فى تهيئة السامع لما هو جديد أو أهم و غير ذلك من فوائد الإشارة .

و الإشارة لا ترتبط بيد أو أصبع ، بل إن أدوات استخدامها فى الخطيب كثيرة ، فقد تصور الإشارة باليد أو الذراع أو جزء منهما كالأصبع و ما دونه

، و قد تكون بجزء من البدن ، كالكتف أو القدم ، أو الرأس أو النصف الأعلى من الجسد عند الانحناءة و الخضوع مثلاً ، و قد تكون الإشارة بالعين .

« و العين هى النافذة التى نطل منها على العالم و يطل منها علينا ، تشف نظراتها عن العواطف ، و تكشف عما بداخل النفس ، و العين تستطيع أن تحكى عن العديد من المعانى ، فالعين المفتوحة تحكى خوفاً أو غيظاً أو إعجاباً ، و المغلقة تشير إلى التواضع أو البغضاء ، و النظر الشزّر يشير إلى الاحتقار و الاستهانة و الكراهية ، و المتحركة يميناً و شمالاً تنبئ عن الاشمئزاز أو الترقب أو التردد ، و المتطلعة إلى السماء تنبئ عن الدعاء . و النظر إلى الأرض يعنى اليأس أو الخشوع أو الحياء ، و العين المستقرة فى نظرتها تفصح عن الشدة و الإثبات و الرجاء ، و العين اللامعة ترجمان عن الظفر و النجاح » (١) و غير ذلك من اللغات التى تجيدها العين و تحكيه حالاً لا مقالاً .

« و الوجه كله معبر عن الانفعالات بما يترسم على صفحته من خطوط و أشكال ، فارتفاع خطوط الجبهة قليلاً يمثل الانتباه ، و ارتفاعها كثير يمثل الدهشة أو الفرح العظيم أو الألم الأليم ، و انخفاضها يدل على القلق و التفكير ، و الوقفة المعتدلة الناهضة تدل على التحدى ، و الوقفة المنحنية

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى بتصرف ص ٢٧ .

تدل على الحنان و الشفقة و الاستسلام ، و انطلاق الذراع للأمام ينبئ عن التقدم و عن التهديد و هكذا .. » (١) .

و كان من هديه ﷺ استخدام الإشارة عند الحاجة حتى يتأكد المعنى و يتضح فى نفس المخاطب و من ذلك ما جاء فى الصحيحين من قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » و شبك بين أصابعه . (٢) .

و ما رواه البخارى من قوله ﷺ : « أنا و كافل اليتيم كهاتين فى الجنة » و أشار بالسبابة و الوسطى و فرّج بينهما (٣) .

و عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ رأى نخامة فى القبلة فشق ذلك عليه حتى رؤى فى وجهه ، فقام فحكه بيده فقال : « إن أحدكم إذا قام فى صلاته فإنه يناجى ربه ، و إن ربه بينه و بين القبلة ، فلا يبزقن أحدكم قبَلَ القبلة ، و لكن عن يساره أو تحت قدمه ، ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم ردّ بعضه على بعض فقال « أو يفعل هكذا » (٤) .

و قد ورد فى سنن الترمذى عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال : « قل ربى الله ثم استقم » قلت : يا

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) متفق عليه البخارى ك المظالم ب / نصر المظلوم ، مسلم ك البر و الصلة ب / تراحم المؤمنين .

(٣) سبق تخريجه ص ١٩٢ .

(٤) صحيح البخارى ك / أبواب المساجد ب / حك البزاق باليد فى المسجد .

رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال : « هذا » (١) .

و قد روى الترمذى فى سننه عن شمائل المصطفى ﷺ « ... لا يغضب لنفسه و لا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، و إذا تعجب قلبها ، و إذا تحدث اتصل بها ، و ضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى و إذا غضب أعرض و أشاح ، و إذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ... » (٢) .

و من هنا فالإشارة ذات مكانة فى البيان و الإفصاح ، و التأكيد و الإيضاح ، شريطة أن تكون فى موقعها ، و غير زائدة فى الكلام ، فلابد أن تحمل رسالة ، و تبلغ هدفاً فى ذهن المخاطب ، و إلا لا داعى لها إطلاقاً ، و قد وضع العلماء عدة ضوابط لاستخدام الإشارة فى الخطابة حتى يتم الاستفادة منها و هى : (٣) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٤١ .

(٢) سنن الترمذى فى الشمائل ب / كيف كان كلام الرسول ﷺ جـ ١ ص ١٨٥ و اتصل بها أى بكفه بمعنى أن حديثه يقارن تحريكها و بين ذلك بقوله (و ضرب ..) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية د / مهدى رزق الله ص ٧٣٠ ط مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية-ط ١ / ١٩٩٢ .

(٣) الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٥١ ، ١٥٢ ، فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٨ ، ٢٩ ، الخطابة فى موكب الدعوة د / عمارة ص ٨٩ جـ ١ .

١ - أن يأتى بها الخطيب فى مواضعها الملائمة لها المحتاجة إليها .

٢ - أن تكون موافقة للمعنى و سابقة له ، فيشير ثم ينطق ، أو مع النطق على الأقل .

٣ - أن لا يحجب عن الناظرين وجهه بيده ، أو يعترض بها جسمه .

٤ - أن تكون سريعة و خاطفة كلما كان الكلام ملتهباً حتى تناسب الظرف و تطابق العاطفة .

٥ - أن توافق المعنى فلا تكبر و لا تصغر .

٦ - عدم الإكثار منها ، فالإكثار منها صرف للسامع عن الانتباه و تشويش عليه .

و على ذلك فالاهتمام بالهيئة و حسن المظهر و ضبط الإشارة و الحركة من الأمور الهامة في نفس الخطيب و إن كانت فى ظاهرها أموراً ليست أصيلة فى الخطابة إلا أنها تمثل العوامل المساعدة لتنشيط العناصر الفاعلة ، و لو لا هذه العوامل المساعدة ما كان تنشيط و لا تفعيل . و يقول الشيخ على محفوظ فى ذلك و هو يتحدث عن مواصفات الخطيب : « التجمل فى شارته و إشارته ، و ملابسه و هيئته و حب النظام فى كل ما يحتف بالخطبة ، و هذا و إن لم يكن من الصفات التى تقوم عليها الخطابة إلا أنه أمر يجب العناية به لأنه مطمح الأنظار ، و النظر يفعل فى القلوب ما يفعل السمع لا سيما فى هذا الزمان المفتون الذى يحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته ،

فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار نصف صفته

و جملة الأمر أنه يلزم أن يكون الخطيب أحرص الناس على الكمال و أبعدهم عن النقص ، فإن الذى ينصب نفسه لقيادة الناس يجب أن يكون من الفطانة و السداد بنجاة من أقل الهفوات ، فإن أدنى هفوة تسقط اعتباره و تهون على الناس أمره ، حتى يجعلوا مجلسه ملهاة من الملاهى ، لا عبرة من العبر » (١) .

(١) فن الخطابة الشيخ على محفوظ ص ٤٤

جهارة الصوت وحلاوته :

مما يساعد على رواج البضاعة حسن تغليفها ، بل إن حسن التغليف كثيراً ما يكون السبب المباشر لإقبال المشترى علي سلعة ما كى يشتريها ، و جهارة الصوت و حلاوته بالنسبة لما عددناه من صفات الخطيب يمثل غلاف هذه الصفات ، و المظهر النهائى لهذه الاستعدادات .

فالصوت بالنسبة للخطيب من أجل النعم التى أنعم الله بها عليه ، و بدونه لن يكون خطيباً و لن يكون كلاماً ، فهو البوابة الخارجية التى ينطلق منها كلامه و انفعالاته حتى تقع فى نفس المخاطبين « فيسحر و يبهر بحلاوة نغماته ، و صفاء رناته ، و حسن توقيعاته ، و كثيراً ما يسحر الخطيب بصوته أكثر من سحره ببلاغته ، فتتمايل النفوس بنغمه كما تتمايل الأفنان بنسيم السحر .

و لذا قال (لا روشفو كولد) : البلاغة تكون فى الصوت و الملامح كما تكون فى اختيار الكلام » (١) .

و لا نعنى بجهارة الصوت صياحاً و صخباً و ضجيجاً فإن ذلك مما ينفر من سماعه الإنسان ، بل نقصد بجهارة الصوت قوته ، و شدة وقعه ، و تمايز الحروف من مخارجها حتى تكون أكثر وقعاً و فهماً ، فجهارة الصوت على

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٩ بتصرف يسير .

ذلك تضيف الى شخصية الخطيب قوة و ثباتاً ، مما يزيد نفوذه في نفوس المستمعين .

و نقصد بجهارة الصوت ملاءمته للمخاطبين قرباً و بعداً ، قلة و كثرة ، و ملاءمته للمكان طبيعة و اتساعاً و ضيقاً ، انفتاحاً و انغلاقاً .

« فالصوت الجهير القوى الذى يدوى فى الحفل من عُدَد الخطيب لامتلاك الجمهور و إسماعه كله ، فعلى الخطيب أن يلائم بين مقدرته الصوتية و بين المكان . فالصوت فى الأماكن المغلقة أقوى إسماعاً منه فى الخلاء ، و هو فى الهواء الساخن أسرع سرياناً منه فى الهواء البارد » (١) .

و كذا الصوت الذى يخاطب به عشرة – مثلاً – يختلف عن الصوت الذى يخاطبه به مئات .

و ربما كان المسجد أو المكان الذى يخطب فيه فى بيئة صناعية يكثر ضجيجها ، أو يكثر حولها الحركة و تتعالى عندها الأصوات كالأسواق ، فعليه أن يراعى ذلك أيضاً فى صوته .

و قد وفرت مكبرات الصوت اليوم على الخطيب الكثير و الكثير من الجهد الصوتى ، و لكن ينبغى عليه أن يراعى قوتها و ضعفها حتى يكيف صوته ليناسب أسماع المخاطبين ، فعليه أن يجربها قبل صعوده ليخطب ، أو يجربها له أحد و هو يسمع ليضع نفسه مكان المخاطبين ، فلا يعلو الصوت ليكون صريخاً ، و لا يخفت ليكون همساً ، و كلاهما مضيع لجهده .

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

و لابد أن يراعى تأثير هذه المكبرات الصوتية على النغمات و النبرات و الانفعالات ، فقد تذهب بكثير من النبرات و النغمات في ترددها ، و قد تعكس بعض الانفعالات أولا تظهرها مما يستدعي في ذلك تمهلاً في إلقائه ، و عناية بمقاطع الجمل لتصل للآذان بلا تداخل و لا اختلاط ، و التمهل في الإلقاء ، و العناية بالمقاطع يعطي فرصة لمزيد من الفهم و مزيد من المتابعة ، كما أنه يقلل جهد الخطيب الصوتي ، مما يعطيه فرصة أوسع إذا ما طال الكلام ، و يعطيه القدرة المستمرة على التحكم في نغمات صوته و انفعالاته حسب مشيئته .

إن جهد الصوت و تعبه يأتي على حساب تنوّع نغماته ، و يأتي على حساب انفعالات الخطيب التي لا غنى له عنها ، فإذا ما ضعف صوته تعباً خرجت نغماته واحدة رتيبة ، و انفعالاته معدومة ميتة .

« و كان العرب يمدحون الخطيب جهير الصوت ، و يذمون خافته ، و لذلك تشادقوا في الكلام ، و مدحوا سعة الفم ، و ذمّوا صغره . . قيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، و ضِخمُ الهامة ، و رَحْبُ الشدق ، و بعد الصوت » (١) .

و جهارة الصوت تحتاج إلى نداه و حلاوته حتى لا تكون قوته جافة ،

---

(١) فن الخطابة د / الحوفي ص ٢٩ .

و نبرته قاسية فينفر منه الناس . و على الخطيب إن لم يكن قد وهب جهارة الصوت و حلاوته أن يدرب نفسه حتى يحصل له ذلك

فالإنسان يستطيع بالمران و الخبرة أن يطوع صوته فيقويه من ضعف . و يهدئه من صياح و صراخ ، و يلونه من رتابة ، و يساعد الخطيب في ذلك أن يكثر سماع الخطباء الأفذاذ ممن يملكون هذه الملكات ، أو يذهب لمتخصصين في الأصوات حتى يستقيم له صوته .

و لا يخفى ما لجهارة الصوت و قوته في المحافل ، و في مجادلات الخصوم ، و مغالبة الأعداء ، كما لا يخفى دورها في إثارة الحماسة و الشجاعة في النفوس خاصة في أرض المعركة ، و عند فزع الناس و هلعهم .

« و على الخطيب أن يتجه بصوته إلى وسط المجتمع لا إلى جانبيه أو إلى فوق أو أسفل » (١) ، حتى يكون تركيزه موزعاً بدرجة متقاربة ، و لا يركز صوته عند الأطراف إلا عند حدوث حاجة لذلك ، كحدوث ضجيج أو هرج من المستمعين ، فيركز عليهم بصوته و نظراته حتى يسكنوا أو ينصتوا .

و إذا ما أغنت مكبرات الصوت اليوم عن ذلك و أصبحت هي المتحكمة في توزيع صوت الخطيب ، فينبغي عليه أن يراعي توزيعها قبل بدئه و الاستعانة بأهل الذكر في ذلك ، حتى لا يكون تركيزها في مكان دون مكان ، و هذا ما

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩

يفعله الخطيب الحاذق الخبير ، كما يفعله قارئوا القرآن الكريم في حفلاتهم ، و غيرهم .

« و على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعاني ، و أن يجعل من نغمات صوته ، و ارتفاعه و انخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ ، و ليعمل على أن يكون صوته ناقلاً صادق النقل لمشاعر نفسه و ليمرنه التمرين الكافي على أن يكون حاكياً صادق الحكاية لمعاني الوجدان ، و خواطر الجنان ، و ليعلم أن لا شيئ كالصوت يعطي الألفاظ قوة و حياة ، و أنه إذا أحسن استخدامه خلق به جواً عاطفياً يظل السامعين ، و به يستولي عليهم .. و عليه عند الابتداء يبتدئ منخفضاً هادئاً ثم يعلو شيئاً فشيئاً ، فإن العلو بعد الانخفاض سهل ، و وقعه على السامعين مقبول ، أما الخفض بعد الارتفاع فلا يحسن وقعه ، و لذا ينبغي على الخطيب أن يوازن بين طاقته و بين زمن خطبته ، و المجهود الصوتي الذي يجب بذله » (١) .

و تردد الصوت بين الانخفاض و الارتفاع يتحكم فيه عند عرض موضوعه انفعاله الشخصي ، و تأثره بكلامه و إيمانه بفكرته ، فعليه أن يراعي ما في الموضوع من معاني ، و دلالات حتى يستطيع الانفعال بها و من ثم يبرزها في جوها الملائم بها بصوته ، فلهجة الترهيب تخالف الترغيب ، و الرضا تخالف السخط ، و الألم تغاير الأمل ، و الفرح تغاير الحزن ، و الشك تغاير

---

(١) الخطابة / الشيخ أبو زهرة ص ١٤٩ بتصرف يسير .

اليقين و هكذا . فالكلمة تخرج من الفم تحمل معناها ، و لكن يتأكد هذا المعنى و يجمل إذا ما صاحبها الإحساس المناسب لها و الصوت المتسق معها .

و كما تختلف الكلمات فى معانيها ، و يحتاج كل معنى إلى نغمة صوتية معبرة عنه ، كذلك الجمل تختلف فى معانيها و وقعها فمنها الأصلى و منها الفرعى ، منها الركن و منها النافلة ، و نطق هذه لابد أن يختلف عن نطق تلك . « و كذا فى كل جملة كلمة ذات معنى رئيسى هو عمود الجملة و المقصد الذى سيقت من أجله ، فمثلاً قول الإمام على (كرم الله وجهه) « أعجب ما فى الإنسان قلبه ، و له مواد من الحكمة ، و أضداد من خلافها » فكلمة قلبه هى ذات المعنى الرئيسى فى الكلام ، فعند النطق بها يجب أن تعطى شعاراً صوتياً يدل على شرفها ، و يوجه الأنظار إليها » (١) .

---

(١) الخطابة للشيخ أبي زهرة ص ١٥٠ بتصرف

حرارة عاطفة و صدق لهجة :

إن الإيمان العميق بالفكرة ، و اليقين الجازم بسمو الهدف من الأمور الهامة التي تكسب الخطيب قوة في كلامه يخترق بها أغلفة القلوب ، و حجب العقول ، و القوة هنا ليست مجرد قوة صوتية ، بل إنها قوة الحق الذى انفعل به و يحترق من أجله ، قوة الإيمان بمبدئه و الصدق برسالته .

هذه القوة تكسبه عاطفة جياشة ، و لهجة ينبثق الصدق من جنباتها و عباراتها و كلماتها ، بل و من لفتاته و إشاراته ،

« فالخطيب المتأثر المعتقد صدق ما يدعو إليه تلتهب كلماته ، و تستقر فى القلوب عباراته ، لأنها قبس من نفسه المشتعلة ، و صورة من عواطفه المنفعلة ، و سرعان ما تتصل أرواح السامعين بروحه ، تستمد منها و تتحد معها و تتجاوب ، و تندفع إلى الطريق التى يشقها الخطيب و يريدها ، فهو لا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفتها ، و قلوبهم قد وعتها » (١)

و كلما زادت العاطفة حرارة في نفس الخطيب انطبع ذلك على لهجته صدقاً « فيظهر الإخلاص فيما يدعو إليه ، و الحرص على الحقيقة فيما يعمل . عندئذ يثق الناس به ، و يصدقونه فيما يدعو إليه ، و يملؤهم الشعور بأنه شريف يجب إجابته لشرفه و شرف ما يدعو إليه ، و من أجل أن يكون

---

(١) فن الخطابة د / الحوفى ص ٢٥ .

الإخلاص بادياً يجب أن يكون حاله مطابقاً لمقاله ، فلا يتجافى عمله مع قوله ، بل يكون أكثر الناس أخذاً بما يدعو له » (١) .

و عليه أن يعلم أن الحال إذا ما غاير المقال كان أدعى لمقت المستمعين و تهكمهم فضلاً عن مقت الله و غضبه – عز و جل – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

و كان هذا دليلاً على عدم العقل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، فضلاً عن أن ذلك يعطى فرصة للشك فى نفع كلامه ، و فى خير ما يدعو إليه و إلا لكان أسبق الناس لتطبيقه و العمل به .

إن النبى ﷺ قبل أن يأمر بمعروف كان أول الناس فعلاً له ، و قبل أن ينهى عن شيئ كان أبعد الناس عنه ، طبق قانون « ابدأ بنفسك » فى حياته كلها ، فأسر القلوب بحرارة عاطفته ، و أخذ بمجامع العقول بصدق حجته ، و ينبغى أن يكون الخطيب كذلك

إنه ﷺ قبل أن يحث على قيام الليل تورمت قدماه من قيامه ، قبل أن يحث على الشجاعة و الإقدام كان فى غزواته أقرب الناس إلى العدو مقاتلاً ، قبل أن يأمر بالصبر على البلاء كان مثالاً فيه و نموذجاً يحتذى به القوم ،

---

(١) الخطابة للشيخ أبى زهرة ص ٥١ بتصرف يسير

(٢) سورة الصف ٢ ، ٣ .

(٣) سورة البقرة ٤٤

قبل أن يأمر بالتيسير كان ميسراً ، و بالحلم كان حليماً واسع الصدر ، و بالكرم كان أجود الناس و قبل أن يأمر بالصدق لقب بالصادق ، و قبل أن يتحدث عن الأمانة كان الأمين ، . .

و كما حرص النبي ﷺ على البدء بنفسه في كل ذلك كان يبدأ أيضاً بأهله و عشيرته في كل أمر و نهي حتى لا يشك غيرهم في صدق دعوته و رسالته ، فيوم أن وضع دم الجاهلية وضع دم ربيعة بن الحارث ابن عمه و يوم أن وضع ربا الجاهلية وضع ربا عمه العباس بن عبد المطلب . (١) .

و لما تحدث عن إقامة الحدود أخبر أنه سيطبقها و لو على حساب أحب الناس إليه « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢) .

و قد أوصى أهله بالعمل و التزود للآخرة ، و لا يركن منهم أحد عليه فلن يغن عنهم من الله شيئاً ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) « اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئاً ، اعملي يا صفية فإني لا أغني عنك من الله شيئاً ، اعمل يا عباس .... » (٤) .

إن الفصل بين القول و العمل في حياة الخطيب مذهب لكرامته مضيع

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٢ هامش (٤) .

(٢) متفق عليه البخاري ك / التفسير ب / « أم حسبت أن أصحاب الكهف و الرقيم . » ، مسلم ك / المغازي ب / مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح .

(٣) سورة فاطر ١٨ ، سورة الزمر ٧

(٤) متفق عليه البخاري ك / التفسير / ب / « و أنذر عشيرتك الأقربين » ، مسلم ك / الإيمان ب / « و أنذر عشيرتك الأقربين » .

لمروءته ، مخيب لأمله ، معطل لكلماته فحرارة العاطفة هى التيار الذى يسرى فى الانفعال ، و صدق اللهجة هو الدم الذى يجرى فى شريان المقال ، و بدونهما ينقطع التيار فلا يرجى منه نوراً ، و يجف الشريان فلا يرجى منه رياً ، و يكون الخطيب عندئذ كالمنبت لا أرضاً قطع و لا ظهراً أبقى .

و من أراد أن يتكشف حرارة العاطفة فى أوجها ، و صدق اللهجة فى ذروتها فما عليه إلا أن يقرأ خطب النبى ﷺ و صحابته (رضوان الله عليهم) ففيها شفاء العليل .

و على قدر حرارة العاطفة و صدق اللهجة يكون التشبث بالفكرة و الإصرار على الموضوع ، فلا يصاب الخطيب بملل و لا بكلل ، و يدفعه ذلك نحو الإبداع ، و تنوع العرض ، و يحرص على فكرته و كأنها ولده الذي يتعهده بالرعاية و العناية حتي يشب و يكبر و تقرّبه عينه ، و يحرص على جمهوره و كأنه الأرض الذي يريد أن يغرس فيها هذه النبتة حتى تثمر و تؤتى أكلها .

« و علامات حرصه و صدق لهجته تظهر على ملامح وجهه أثناء الخطابة فينطبع عليه ملامح طهارة القلب و الإخلاص فى العمل ، و بذلك تطمئن القلوب إلى تصديقه و تمتلئ النفوس ثقة به ، فيستمعون إلى قوله ، و ينقادون له – أما الكاذب سيئ السلوك فلا تركن إليه النفس و لو جاء بالصدق ، قال أبو العتاهية :

و القول أبلغ ... كان أصدقه * والصدق فى موقف مستسهل عال (١)

و حرارة العاطفة و صدق اللهجة لا ينبعان إلا من واثق بنفسه ، مؤمن برسالته ، مخلص في عمله ، يستمد تلك الثقة من هذا الإيمان و هذا الإخلاص ، اللذان يمليان عليه إتقاناً في العمل و حباً له دونما انتظار أجر أو مثوبة إلا من الله - عز و جل - ، يحصلهما في دنياه نجاحاً فى عمله و هداية لمدعويه ، و في الآخرة رضاً من ربه و نعيماً و ملكاً كبيراً .

فالخطيب فى مكانه يعلم أن منظور الناس له هو الصدق ، فينبغى أن يظل فى هذه الصورة دائماً خاصة و أنه أكثر الناس علماً بمخاطر الكذب و سوء عاقبته

و صدق الخطيب يكشف عن مدى ثقته بالله - عز و جل - حيث إن الإنسان يلجأ إلى الكذب فى عدة أحوال هى :

١ - غصب ما ليس له حق فيه .

و الثقة فى الله - عز و جل - تبصر الإنسان بأن ماله سوف يأتيه و ما قدره الله سوف يكون ، فلا يلجأ للحصول على ماله بطرق ملتويه ، إنما يسلك الطرق الشرعية التى أحل الله - عز و جل - ، فضلاً عن أنه يخشى من كسب الحرام و يكره الطرق المؤدية إليه ، فهو لا يحتاج إلى الكذب ، لأنه

---

(١) فن الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٤١ ، ٤٢ بتصرف .

راض بما قسم الله قانع بما لديه غير طامع فيما فى أيدى الناس ، و الخطيب أعلم الناس بذلك بل إنه هو المطالب بتأسيس ذلك فى نفوس الناس .

٢ - خوف من ضرر يلحقه .

و الثقة فى الله - عز و جل - تؤصل فى نفس العبد أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فالأمر بيد الله ، و هو على يقين بأن الصدق منجاة لأن الصادقين فى حزب الله ، و حزب الله هو الغالب دائماً ، فلا يلجأ إلى الكذب مهما ألمت به الظروف لعلمه أن الله يؤيد الصادقين بنصره ، و الخطيب أدرى الناس بذلك .

٣ - إلحاق الضرر بالغير .

و الخطيب مع جمهوره أبعد الناس من ذلك ، فهو لا يريد لهم إلا الخير ، و الثقة فى الله تؤصل فى نفس العبد الخشية من الله - عز و جل - فهو يدرك إحاطة الله بكل شيئ و أن مرده إلى الله يحاسبه عن كل شيئ ، فضلاً عن أن الثقة و الإيمان بالله يصوران المؤمنين كالجسد الواحد . فما لا يرضاه الإنسان لنفسه لا يرضاه لغيره .

٤ - شهوة فى فضول الكلام .

و الخطيب أعلم الناس بما للكلمة من خطورة بالغة ، قد ترفع صاحبها درجات علا ، و قد تهوى به فى جهنم و بئس المصير ، و هو أعلم الناس بأن

كلماته بل و أنفاسه تحت رقابة صارمة و ميزان دقيق ، و هو يعلم أن لسانه من أجل نعم الله التي ينبغي أن تشكر، و شكرها في نطق الحق و قول الصدق ، لذا فكلما تعمق الإيمان في نفسه انطبع في كلامه و بيانه ، و لذا لما كان الأنبياء أعلى درجات الإيمان كانوا أصدق الناس في الكلم و البيان .

إن كذب الخطيب على جمهوره من أبشع الجرائم . فالقضية لا تكمن في هز صورته و ضياع الثقة فيه بل إنها جريمة غدر و خيانة لهذا الجمهور من قائدهم ، فيأتيهم بالضر من حيث ينتظرون نفعاً ، و يأتيهم بالهلاك و هم يأملون نجاة ! .

و قد برز صدق اللهجة واضحاً على ألسنة الأنبياء و المرسلين جميعاً فبينوا أنهم لا يسألون من وراء دعوتهم أجراً ، و لا طمعاً ، بل يريدون من ورائها نفع أقوامهم و رضا ربهم – عز و جل – و كما سجل القرآن الكريم على ألسنتهم من حرارة العاطفة و صدق اللهجة في قوله تعالى في قصة نوح – عليه السلام – : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

و في قصة هود – عليه السلام – : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

و على لسان صالح – عليه السلام – : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا

---

(١) سورة الأعراف ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف ٦٥

قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) ،

و على لسان شعيب – عليه السلام – : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

و على لسان إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

و يخاطب القرآن النبى ﷺ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) . ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٥) .

و جاء فى خطبة له ﷺ : « ... و الله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، و لو غررت الناس جميعاً ما غررتكم . و الله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة و إلى الناس كافة ، ... » (٦) و فى حجة الوداع يخطب

---

(١) سورة الأعراف ٧٣ .
(٢) سورة الأعراف ٨٤ .
(٣) سورة العنكبوت ١٦ .
(٤) سورة الأنعام ٩٠ .
(٥) سورة الشورى ٢٣ .
(٦) سبق تخريجه ص ٥٢ .

النبى ﷺ فيقول « أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، و ذو الحجة ، و المحرم ، و رجب مضر الذى بين جمادى و شعبان .

أى شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى

قال : و أى بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ - يعنى مكة - قالوا بلى

قال : فأى يوم هذا ؟ أليس يوم النحر ؟ قالوا بلى .

قال : فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذه ... » (١) .

و وصفه القرآن الكريم بحرصه على الناس و خوفه عليهم مما يبين مدى صدق لهجته معهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

و يبين القرآن الكريم جانب صدق اللهجة و حرارة العاطفة فى الدعاة من غير الأنبياء فى قوله تعالى عن مؤمن آل ياسين : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٢ هامش (٤) .

(٢) سورة التوبة ١٢٨

(٣) سورة يس الآيات ٢٠ - ٢٢ .

و كذا ما كان من مؤمن آل فرعون ﴿وقال رجلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (١) . ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢)

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (٣) ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (٤) .

فيتجلى في هذه الآيات و كلامه ﷺ حرارة العاطفة و صدق اللهجة

---

(١) سورة غافر ٢٨

(٢) سورة غافر ٣٠ - ٣١

(٣) سورة غافر ٣٨ ، ٣٩

(٤) سورة غافر ٤١ ، ٤٢ .

كأوضح ما يكون ، كما يظهر جلياً أن الكلام ينبع من قلب مفعم بالإيمان واثق بالله - عز و جل - مؤثر رضاه على أى شيئ فانفعلت النفوس و تأثرت العواطف فانسابت الكلمات تحكى صدقاً ، و الجمل تحكى حقاً ، و دوَّت الألفاظ في عقول و قلوب السامعين ، كما دوَّت فى سمع الزمان يرددها كى يستفيد منها كل بصير .

مكارم الأخلاق :

الخطيب قدوة .

الخطيب فى مجتمعه لا يبدأ عمله بصعوده المنبر ، و لا بمجرد حصوله على إجازة لذلك ، أو حصوله على درجة علمية فى هذا المجال . فذلك يعنى الممارسة العملية ، لكن مهمته تبدأ قبل ذلك بمراحل عدة ، و هناك من الأدوات التى تفعّل خطابه ، و تكسبه رونقاً و تأثيراً . منها ما قبل الخطاب و منها ما هو أثناءه و منها ما يأتى بعده و منها ما هو مستمر معه دائماً ، فجودة الإلقاء و ما يختص بالصوت مثلاً تصاحب الخطبة ، و التطبيق العملى لكلامه قد يكون قبله فيحكى واقعاً فى نفسه ، و قد يكون بعد الخطاب فيحكى أملاً يطمح إليه ، و منها ما هو قبل خطابته و منها الاستعداد الفطرى .

و من الأمور التى ينبغى مراعاتها فى نفس الخطيب و هو ما يستمر معه دائماً فى جميع أحواله قبل ممارسته الخطابة و أثناء ممارسته و بعدها . مكارم الأخلاق ،، فلا بدله من زاد أخلاقى يتزود به قبل أى زاد ، لابد أن يعيش فى نفسه محامد الصفات و مكارم الخصال ، و يكون قدوة حية بأخلاقه حتى يكون روحاً مؤثرة بكلامه .

و على الخطيب أن يعلم أن عين المجتمع عليه فى جميع تصرفاته ، فإذا كوّن المجتمع خلفية فكرية عن الخطيب بأنه ذا خلق حسن كانت هذه الخلفية نعم العون و السند فى توجيه هذا المجتمع ، و إذا ما كان الأمر عكس ذلك

وقف هذا الانطباع حاجزاً بين الخطيب و جمهوره ، و تظل الصورة السيئة التى أخذها المجتمع عنه تلاحقه فى كل مكان و زمان . و عندها يضيع جهده ، و يظل محتاجاً لمجهود شاق لتحسين صورته و تغيير فكر المجتمع عن شخصه .

و لا يخفى ما للخلق الحسن من تأثير فى الخطيب و جمهوره . ، فالخلق الحسن يكسبه : ثقة الجمهور فيه ، و احترامه إياه ، و يزيد من نفوذ شخصيته داخل مجتمعه ، فضلاً عن أن صاحب الخلق الحسن هو مفزع الخائفين ، و ملاذ اليائسين ، يفزع إليه كا صاحب حاجة . طامعين فى كرمه ، واثقين فى سخائه و ذكائه ، فما بالنا إذا كان هذا الإنسان هو خطيب القوم و قائدهم .

و حسن السمعة كالمقدمة للإقناع ، و الباعث على التصديق ، و البانى لجسور الثقة المتبادلة بين الخطيب و جمهوره ، و فى ذلك يقول أرسطو : « و أخلاق الخطيب نفسه تنتهى به إلى الإقناع حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة ، و يملأ نفس الخطيب بالطمأنينة ، و ليس صحيحاً أن نصدق قالة الذين كتبوا فى الخطابة من أن أمانة الخطيب و نزاهته لا دخل لها فى الإقناع فنحن نقرر – عكس ما يقولون – أن للصفات الخلقية

التي يمتاز بها الخطيب أكبر الأثر في قوة الإقناع » (١) .

و لما كان التبليغ هو أساس عمل الأنبياء جميعاً لذا كانوا رمزاً للطهارة و الصفاء ، و قدوة فى مكارم الأخلاق ، كانوا أطيب الناس عنصراً ، و أكرمهم نسباً ، و أزكاهم نفساً ، و أحسنهم خلقاً ، صنعهم الله تعالى على عينه ، و اصطفاهم لتبليغ شرعه ، و كان الواحد منهم يمضى فترة غير قصيرة فى قومه قبل بعثته ليكون لهم صفحة بيضاء بمحامده و محاسنه و هذا يعين فى إقرارهم بصدقه ، و خضوعهم لكلامه بعد تكوين خلفية فكرية عن شمائله و أخلاقياته ، هذه الأخلاقيات التى طالما دفعت عنهم افتراءات الكاذبين ، و اتهامات المكذبين، خاصة و أن المكذبين كانوا دائماً يسترجعون تاريخ النبى قبل بعثته بغية الحصول على ما يعيب و ما يشين ، و لما لم يجدوا من ذلك شيئاً راحوا يختلقون الأكاذيب ، و يكيلون الاتهامات .. بحثاً عن شيئ يعترضون به على نبيهم . بمثل ما فعل كفار قريش مع النبى ﷺ. فما استطاعوا اتهامه بالكذب فى قوله ، فهم من لقبوه بالصادق الأمين . فاختلقوا اتهامات بالسحر تارة و الشعر أخرى . ، بالكهانة تارة و الجنون أخرى ، و قد رد بعضهم على بعض بالخلفية التى كونوها عن شخصه ﷺ قبل بعثته .

و لما ضاقت مذاهبهم اعترضوا عليه بما لا دخل له فى الرسالة و لا بما يوزن به الإنسان لدى العقلاء فاستنكفوا بشريته و يتمه و فقره ﷺ .

---

(١) الخطابة لأرسطو ١ / ١٠١ .

و هم فى ذلك شأنهم شأن قوم نوح لما جعلوا من جملة اعتراضاتهم عليه أنه بشر و تبعه الفقراء و الضعفاء . قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ .... ﴾ (١) .

جاء فى تفسير هذه الآية : « ذلك رد العلية المتكبرين .. الملأ .. كبار القوم المتصدرين .. و هو يكاد و يكون رد الملأ من قريش : ما نراك إلا بشراً مثلنا و ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ... إنها الشبهة التى وقرت فى نفوس جهال البشر : أن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ... هذه واحدة أما الثانية فهى تهمة بدون تروٍ و لا تفكير .. تهمة توجه دائماً من الملأ المنحرفين لجموع المؤمنين .. لا تتروى و لا تفكر فى اتباع الدعوات ، و من ثم فهى متهمة فى اندفاعها و اتباعها ، و لا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها و لا أن يسلكوا طريقها .. » (٢) .

و قد سار قوم شعيب من المكذبين فى نفس طريق التكبر و اختلاق التهم و الافتراءات قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود ٢٧ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ١٨٧١ ، ١٨٧٢ بتصرف و اختصار .

(٣) سورة هود ٩٠ .

« فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التى يحملها و يواجههم بها ، و فى حسابهم عصبية العشيرة ، لا عصبية الاعتقاد ، و صلة الدم لا صلة القلب .. » (١) فهم قد نظروا لقلة أتباعه و ضعفهم و فعلوا كما فعل قوم نوح . ، و رأوه « و حيداً بلا جند و أعوان يقدر بهم على مخالفتهم » (٢) و لذا قالوا « ضعيفاً » .

و نحو ما اتهم به فرعون موسى (عليه السلام) فى قوله كما حكى القرآن : « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين و لا يكاد يبين» (٣) « فاتهمه بالمهانة لكونه ليس صاحب ملك أو إمارة أو سطوة أو مال مشهود ، و ربما لأنه من هذا الشعب المستضعف المستعبد » (٤) أو « لأنه يمتهن نفسه فى حاجته » (٥) و عد ذلك من قبيل الحقارة و الضعف عند الجهلاء .

و هكذا فإن عيون المجتمع دائماً ترصد تحركات من فيها خاصة لمن برز دوره ، و اشتهر أمره ، و محاربو النجاح واقفين بالمرصاد لكل متفوق ، و أعوان الشيطان على أهبة الاستعداد لمحاربة كل توجيه راشد . يستغلون فى الدعاة و الخطباء ما كان فى تاريخهم من معائب فيعظمون أمرها ، و ينشرون سرها ، و يطمسون ملامح الخير فيهم ، و لذا لابد أن يكون

---

(١) فى ظلال القران جـ ٤ ص ١٩٢٢ .

(٢) قاله السدى / تفسير القرطبى مج ٥ جـ ٩ ص ٦١ بتصرف .

(٣) سورة الزخرف ٥٢ .

(٤) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٣١٩٣ بتصرف .

(٥) تفسير القرطبى مج ٨ جـ ١٦ ص ٦٦ بتصرف

الخطيب صفحة بيضاء فى مجتمعه بمكارم أخلاقه ، و محامد صفاته حتى يرد المجتمع على من تخرص فى حقه ، فتضيع الاتهامات و يبقى وجه الحق عوناً له فى دعوته .

و مكارم الأخلاق ليست طعاماً و لا شراباً ما أن يطعمه الإنسان أو يشربه حتى يسرى فى دمه و ينضح على وجهه ، بل إنها منهج سلوك ، و طريق تهذيب و تربية ، يدلو فيه الأبوان بدلوهما مع الأبناء فى الصغر و الكبر ، و كذا الأسرة و المدرسة ، و المجتمع بمؤسساته و إعلامه و هيئاته . يستقيها الطفل من بيئته ، و يتشربها مع لبن أمه ، و تعامل أبيه و أهله ، يشترك العديد و العديد من الأفراد و الهيئات فى صنع أخلاق الإنسان ، و فى صقل نفسه بأنواع السلوك .

و إذا كان الأمر كذلك فلابد أن نتخير خطباءنا من بيئات صالحة ، و جذور طيبة حتى يمتد طيبها ، و يكثر خيرها ، و يرجى نفعها ، فبيئة الفساد لا تنتج إلا فساداً ، و بيئة الصلاح لا تنتج إلا صلاحاً .

و إذا ما اهتم الأب باختيار الزوج الصالح لابنته ، فينبغى أن يهتم المجتمع فى اختيار حاملى لواء التوجيه فيه ، و المتحدثين بلسانه ، حتى لا يضيع المجتمع ، و ينهدم بنيانه .

و إذا أردنا بناء أخلاق المجتمع فعلينا أن نمهد الطريق أمام روافد هذه الأخلاق ، و منابع هذه الفضائل حتى تعمل و تشق طريقها ، فالمجتمع

لا يحلم بحسن أخلاق خطبائه فحسب ، بل إنه يحلم باستقامة أبنائه جميعا ، فالأخلاق الفاضلة سرقوة المجتمعات و بقائها و كما قال أمير الشعراء أحمد شوقى :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

فقضية الأخلاق قضية إصلاح شامل يساهم فيها المجتمع بأفراده و أسره و مؤسساته ، و الخطيب بلسانه و حاله يأتى على رأس القائمين بهذا الإصلاح .

و من هنا فلابد أن يعيش الإصلاح فى نفسه ، و الاستقامة فى سلوكه ، حتى يستطيع أن يعطيه غيره ، ففاقد الشيىء لا يعطيه .

فلابد أن يتبصر الخطيب فى نفسه و يتعرف على عيبه قبل التفكير فى إصلاح عيوب الآخرين . و حتى يصل لهذه الدرجة ، و يحقق استقامته فى السلوك ، و يتحلى بمكارم الأخلاق لابد أن يتعرف على طبيعة هذه الأخلاق و ما هيتها ، لابد أن يكون أمامه المثل الحى الممتثل هذه الاستقامة ، الحى بهذه الأخلاقيات ، و حتى يحصل ذلك . ما عليه إلا تدبراً فى كتاب الله – عز و جل – ، و سنة المصطفى ﷺ القولية و العملية ، و يتابع الأخلاقيات العالية و الاستقامة الواعية فى صحابة النبى ﷺ و أعلام التاريخ الإسلامى . ففى ذلك كله سيجد حسن الخلق مجسداً ، و محامد الشيم حية واقعة يستطيع أن يحاكيها ، و يعيش بها . و كما أخبر القرآن الكريم : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ....﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

﴿إنَّ هذا القُرآن يهدى للتى هى أقومُ .. ﴾ (١) ﴿أولئكَ الذين هدى الله فبِهُدَاهُم اقتده .... ﴾ (٢) ، ﴿لقدْ كانَ لكُمْ في رسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمن كَانَ يرْجُو اللهَ والْيوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كثيراً﴾ (٣) .

و كما أخبر النبى ﷺ : « عليكم بسنتى و سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ .. » (٤) ، و غير ذلك من توجيهات القرآن و السنة التى تفتح المدارك فى الإنسان لاقتفاء الأثر و حسن الاتباع .

---

(١) سورة الإسراء ٩ .

(٢) سورة الأنعام ٩٠

(٣) سورة الأحزاب ٢١ .

(٤) سبق تخريجه ص ١٨١ .

منهج الإسلام فى إعداد الفرد خلقياً :

قد سلك الإسلام منهجاً فريداً فى إعداد الفرد خلقياً راعى فيه ضعف الإنسان و شهواته و رغباته و استعداداته و مواهبه و طاقاته ، فلم يعامله كملك ، بل عامله من منطلق بشريته التى تحمل الخير و الشر يحكمها الهوى و الميول ، و تسيطر عليها الشهوات و الغرائز .

فبين القرآن أن الفوز و الفلاح فى التخلص من الهوى و كبت الشهوات ، و التطلع لمعالى الأمور ، و لو كان فيه تعب النفس و مشقة البدن ، لكن فيه الفوز العظيم و الخلق القويم و من ثم النعيم المقيم ، و وضع الإسلام البدائل الطيبة التى يوظف فيها الإنسان غرائزه ، و يلبى فيها شهواته ، و هذا ما قد بينه القرآن فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) . ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) . ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا

---

(١) سورة الشمس ٧ - ١٠ .

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة الجاثية ٢٣ .

جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ (١) .

و بعد أن أكد القرآن ضعف النفس البشرية و تحكم الهوى و الغرائز فيها بيَّن أن التخلص من هذا التحكم ممكناً بشيئ من الصبر و المثابرة .

و يتجلى هنا دور العبادات في التخلص من سيطرة النفس و تحكم الغريزة قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (٢) . ﴿ و الذين في أموالهم حق معلوم . للسائل و المحروم ﴾ (٣) ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ..... ﴾ (٤) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (٥) ، و قال ﷺ : « يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة فليتزوج و من لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٦) ، « من لم يدع قول الزور و العمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه و شرابه » (٧) .

---

(١) سورة ص ٢٦ . (٢) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٣) سورة المعارج ٢٤ - ٢٥ . (٤) سورة التوبة ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة ١٨٣ .

(٦) متفق عليه البخارى ك / النكاح ب / قول النبى ﷺ من استطاع منكم الباءة ، مسلم ك / النكاح ب / استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه و وجد مؤنة .

(٧) صحيح البخارى ك الصوم ب / من لم يدع قول الزور .

و قال تعالى : ﴿ الحجُ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحجِّ ... ﴾ (١) . و قال ﷺ : « من حج فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٢) .

و يأتي التشريع الإسلامي بجملة من العقوبات و الحدود و كذا الآداب الحياتية اليومية في حياة المسلم تمثل ضبطاً للسلوك و تهذيباً للنفوس في آداب الخروج و الدخول ، و النوم و اليقظة ، و الصباح و المساء ، و الطعام و الشراب و اللباس ، و العمل و غير ذلك ، حتى في أخص أحوال المسلم عند دخول الخلاء و عند الجماع ، و كذا آداب التعاون و التوادد ، من زيارة المريض ، و حق الجار ، و صلة الرحم ، و ما على الفرد من واجبات ، و ما له من حقوق ، حرص الإسلام على وضعها نصب عين المسلم يستنير عن طريقها في حياته و يهذب بها سلوكه و أخلاقياته .

كما اهتم الإسلام بالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان ، فهي بيئة الصلاح - هكذا يريدها الإسلام - و وضع لها مقومات وجودها قال تعالى ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ ويقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ ويطيعونَ اللهَ ورسولَهُ أولئكَ سيرحمُهم اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ١٩٧ .

(٢) صحيح مسلم ك الحج ب / لا يحج البيت مشرك .

(٣) سورة التوبة ٧١ .

و حرص الإسلام على تطهير الأسرة المسلمة من لحظة الاختيار فأوصى الشاب بقوله ﷺ « تنكح المرأة لأربع لمالها و لجمالها و لحسبها و لدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١) : و أوصى ولي الفتاة بقوله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد كبير » (٢) .

كما حرص الإسلام على التربية الحسنة و تعاهد الأولاد بالرعاية و العناية ، و تخير الصحبة الطيبة ، و قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .... ﴾ (٣) ، و قال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . (٤) .

كما اهتم الإسلام بالقدوة الطيبة التي يتطلع إليها المسلم حتى يتخلق بالخلق الحسن ، و جعل المثل الأعلى في شخص النبي ﷺ صاحب الخلق الكامل ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (٥) .

---

(١) متفق عليه البخاري ك / النكاح ب / تزوج المعسر ، مسلم ك / النكاح ب / استحباب نكاح ذات الدين .

(٢) رواه الترمذي ك / النكاح ب / إذا أتاكم من ترضون دينه فزوجوه

(٣) سورة الكهف ٢٨ .

(٤) رواه الترمذي ك / الزهد ب / ما جاء في أخذ المال ، و قال عنه حديث حسن غريب .

(٥) سورة الأحزاب : ٢١ .

و يجمل بنا فى هذا المقام أن نعرض قبساً من نور القرآن الكريم و السنة المطهرة عن مكارم الأخلاق حتى ينظر الخطيب فى نفسه و يسأل . هل هو ممن تحدث عنهم القرآن و السنة فيحمد الله و يسير على الدرب ؟ أم أن البون شاسع و الشقة بعيدة فيثوب إلى رشده و يستقيم على الجادة ؟ .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٣) .

﴿ ... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ١٩ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ

---

(١) سورة الأنفال ٢ ، ٣ .

(٢) سورة (المؤمنون) ١ - ٩ .

(٣) سورة (المؤمنون) ٥٧ - ٦١ .

الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ (١)

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين (١٣٣) الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (١٣٤) والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ (٢)

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (١٥٢) وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣).

---

(١) سورة الرعد ١٩ - ٢٢

(٢) سورة آل عمران ١٣٣ - ١٣٥

(٣) سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)
رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)
وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ
عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ
نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ

إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ..... ﴾ (١) .

﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (٢) .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (٦٥) إنها ساءت مستقراً ومقاماً (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً (٧٠) ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً (٧١) والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً (٧٢) والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الإسراء ٢٣ - ٣٩ .

(٢) سورة النور ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة الفرقان ٦٣ - ٧٤ .

﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨) والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون (٣٩) وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (١) .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (٢) . ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾ (٣) .

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم (١) يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ....﴾ (٤) .

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة...﴾ (٥) .

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠)

---

(١) سورة الشورى ٣٦ - ٤٣ .
(٢) سورة التوبة ١١٩ .
(٣) سورة الأحزاب ٧٠
(٤) سورة الحجرات ١ ، ٢
(٥) سورة الحجرات ٦ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١٢) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) .

فهذا قبس من فيض القرآن الكريم تتجلى فيه مكارم الأخلاقيات كأوضح ما تكون ، تتحدث عن نفسها و تحكى من حالها لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد .

و الملاحظ أن القرآن الكريم أقام هذه الأخلاقيات كياناً قائماً بذاته و لم تنسب لزيد أو عمرو و إنما أقام الصفات و الأخلاقيات دون ذكر لموصوف ، و هذا هو منهج القرآن الكريم فى ترتيب الأولويات .

فالمهم هنا الخلق و ليس صاحبه ، و الصفة و ليس الموصوف فعندما نقرأ أن الوفاء من صفة زيد مثلاً ربما ظن البعض تميّز زيد عنهم بأشياء ، و لذا لن يستطيعوا التخلق بخلقه ، لكن القرآن حرّر هذه الأخلاقيات لتكون أسهل فى الأخذ و الاحتذاء فمن أراد أن يتحلى بأخلاق المتقين فها هى

---

(١) سورة الحجرات ١٠ - ١٣ .

صفاتهم ، و من أراد أن يكون من بين أولى الألباب فها هى شمائلهم ، و من أراد أن ينضم للمؤمنين فها هى معالمهم و هكذا ، فيتزود كل سالك على قدر طاقته و ما ييسره الله له .

و لا شك أن الخطيب أعلم الناس بذلك فلابد أن يكون أول السالكين السائرين على درب مكارم الأخلاق حتى يكون قدوة بفعالة كما كان مرشداً بأقواله .

و حتى لا تكون هذه الأخلاقيات مجرد وصايا و عظات ، أو تكون تاريخاً يحكى و قصصاً يسرد فإن النبى ﷺ طبق ما جاء فى القرآن الكريم على نفسه أولاً و من تبعه ثانياً حتى لا تكون هذه الأخلاقيات مجرد فكر يستقر فى العقل و الذاكرة فقط ، بل إنه ﷺ أخرج هذه الأخلاقيات من دائرة الوصايا و العبر إلى الواقع المعاش و السلوك المطبق و كما وصفه ربه - عز و جل - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ، و كما جاء فى وصفه ﷺ « كان خلقه القرآن » (٢) .

و تأتى توجيهات النبى ﷺ القولية و العملية تثبت واقعية هذه الأخلاقيات و سهولة الأخذ بها و فاعليتها فى إكساب المجتمع الاستقامة و الأمان و نقتبس من نوره ﷺ قبساً عن مكارم الأخلاق فى توجيهاته القولية

---

(١) سورة القلم ٤ .

(٢) البخارى على الفتح ك المناقب ب / صفة النبى ﷺ أى خلقه .

و العملية حتى تتضح الصورة و تزداد المعالم بهاء و يسهل على المسلم عموماً و الخطيب خاصة الاتباع و التأسى قال تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

فمن توجيهاته ﷺ : « البر حسن الخلق ، و الإثم ما حاك فى صدرك و كرهت أن يطلع عليه الناس » (٢)

« ما من شيئ أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق ، و إن الله يبغض الفاحش البذئ » (٣) .

و قد سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال « تقوى الله و حسن الخلق » (٤) .

و قال ﷺ « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء و إن كان محقاً ، و ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب و إن كان مازحاً ، و ببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » (٥) .

و قال ﷺ « إن من أحبكم إلى و أقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ... » (٦) .

---

(١) سورة آل عمران ٣١ .

(٢) مسلم بشرح النووى ك / البر و الصلة ب / تفسير البر و الإثم

(٣) سنن الترمذى و قال حديث حسن صحيح ب / ما جاء فى حسن الخلق

(٤) سنن الترمذى و قال حسن صحيح ب / ما جاء فى حسن الخلق

(٥) صحيح البخارى ك / الفتن ب / الألد الخصم

(٦) سبق تخريجه ص ٤٢

و قال ﷺ « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » (١)

و قـــال ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً و خياركم خياركم لنسائهم » (٢)

و لـه ﷺ من التوجيهات فى أمهات الفضائل و مكارم الأخلاق ما يصعب الإلمام به و ليس هذا مجاله فمجال الكلام هنا الاستشهاد و ليس الإحصاء .

و هناك فى كتب السنة كتباً و أبواباً اختصت ببيان توجيهاته ﷺ فـــى حسن الخلق تحدث فيـها النبى ﷺ عن الصـدق و البـر و العفـو و الحلم و الأناة و الرفق و الإحسـان و الأمـانة و الوفـاء بالعـهـد و خـفض الجناح . و الصبر و المروءة و الشجاعة و العدل و العزة و الحياء و الكرم و السـخاء .. و غيـر ذلك مما امتـلأت به كتب السنة و التى تعد المورد الثانى بعد القرآن الكريم بالنسبة للخطيب حتى يتزود منها بكل نفع و خير .

و قد عدَّ العلماء بعضاً من شمائل المصطفى ﷺ برز من خـلالها مـدى معايشته ﷺ لمكارم الأخلاقيات واقعاً حياً

فعن أنس رضي الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً » (٣) .

و عنه قال « ما مسست ديباجاً و لا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ

---

(١) سنن أبى داود ك / الديات ب / فى حسن الخلق ، المسند ح ٢٤٦٣٩ مسند السيدة عائشة .

(٢) صحيح البخارى ك الأدب ب / حسن الخلق و السخاء و ما يكره من البخل

(٣) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٤

و لا سممت رائحة قط اطيب من رائحة رسول الله ﷺ و لقد خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى قط أف . و لا قال لشيئ فعلته لم فعلته ؟ و لا لشيئ لم أفعله . ألا فعلت كذا ؟ » (١)

و عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال « لم يكن النبى ﷺ فاحشاً و لا متفحشاً ... » (٢) .

و عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، و ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شيئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى » (٣) .

و ورد فى صحيح مسلم « .. ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، و لا امرأة ، و لا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله » (٤)

و عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس و كان أشجع الناس و لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً ، و قد سبقهم إلى الصوت ، و هو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف و هو يقول « لم تراعوا لم تراعوا » (٥) .

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٧

(٣) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٩

(٤) مسلم بشرح النووى ك / الفضائل ب / مباعدته ﷺ للآثام .

(٥) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٣

و عن على كرم الله وجهه قال : « لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ و كان من أشد الناس و لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه » و عنه من طريق ثان : « رأيتنا يوم بدر و نحن نلوذ برسول الله ﷺ و هو أقربنا إلى العدو ، و كان من أشد الناس بأساً » (١).

و عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال « كان النبى ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه » (٢).

و عن أبى هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً بال فى المسجد ، فثار عليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « دعوه و أهرقوا على بوله ذنوباً من ماء ، أو سجلاً من ماء فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين » (٣).

و عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، و كان أجود ما يكون فى شهر رمضان . إن جبريل (عليه السلام) كان يلقاه فى كل سنة ، فى رمضان حتى ينسلخ . فيعرض عليه الرسول ﷺ القرآن . فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » (٤).

---

(١) المسند ٢ / ٦٥٣ / ح ٦٥٤ و صحح إسناده المحقق .

(٢) متفق عليه / البخارى ك المناقب / ب / صفة النبى ﷺ ، سلم ك / الفضائل ب / كثرة حيائه ﷺ .

(٣) متفق عليه البخارى / ك الأدب ب / يسروا و لا تعسرو مسلم ك الطهارة ب / وجوب غسل البول و غيره من النجاسات .

(٤) متفق عليه اللؤلؤ و المرجان جـ ٢ ص ٢٤٤ .

و من رحمته ﷺ أن كانت تفيض عيناه لموت الصغار . و قد سأله مر سعد بن عبادة « يا رسول الله ما هذا ؟ فقال ﷺ : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، و إنما يرحم الله عباده الرحماء » (١) .

و قد ذرفت عيناه ﷺ لموت إبراهيم ولده فقال عبد الرحمن بن عوف : « و أنت يا رسول الله ؟ » فقال : « يا ابن عوف إنها رحمة لمن اتبعها بأخرى » و قال : « إن العين تدمع ، و القلب يحزن ، و لا تقول إلا ما يرضى ربنا ، و إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » (٢) .

و روى البخارى أنه ﷺ قد خرج على صحابته (رضى الله عنهم) و أمامة بنت ابن الربيع ، ابنة زينب (رضى الله عنها) على عاتقه ، فصلى ، فإذا ركع وضعها ، و إذا رفع رفعها » (٣) .

و عن عائشة (رضى الله عنها) كان النبى ﷺ إذا بلغه عن رجل شيئ لم يقل له قلت كذا و كذا ، قال « ما بال أقوام يقولون كذا و كذا » (٤)

فهذا قبس من أنوار النبوة صحبنا فيه توجيهات النبى ﷺ و حثه على

---

(١) متفق عليه / البخارى ك الجنائز ب / البكاء على الميت ، مسلم ك الجنائز ب / قول النبى ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله .

(٢) فتح البارى ح ١٣٠٣ ك الجنائز ب / قول النبى إنا بك لمحزنون .

(٣) متفق عليه البخارى ك الأدب ب / رحمة الولد و تقبيله ، مسلم ك / المساجد و مواضع الصلاة ب / جواز حمل الصبيان فى الصلاة .

(٤) رواه أبو داود ح ٤٧٨٨ ، قال المنذرى « أخرجه النسائى بمعناه و هو صحيح ، و ورد فى البداية و النهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٣٨ ط دار المعارف بيروت .

مكارم الأخلاق ، و كذا جملة من شمائله التى سجلها أصحابه عنه ﷺ بدا فيها واضحاً مدى الاتفاق بين التوجيهات القولية و التطبيقات العملية مما علا بالأخلاقيات و بلغت ذروة تأثيرها فى المجتمع بعد أن كان صاحبها نموذجاً فذاً بحاله و مقاله ﷺ .

و الخطيب فى أمس الحاجة لتدبر ذلك و معايشته حالاً فى نفسه و فعلاً فى سلوكه . و عند ئذ يزداد الناس وثوقاً به و تصديقاً لكلامه ، الأمر الذى يوفر عليه جهداً و مشقة . و يستطيع بأقل الكلمات إرشاد البشر و توجيه المجتمعات .

الخاتمة

الحمد لله ، و الصلاة و السلام على سيدنا رسول الله ، و على آله و صحبه و من والاه .

وبعد

فلا يخفى ما للخطابة من مكانة فى المجتمعات البشرية ، فهى أداة فاعلة من أدوات التوجيه و الإرشاد ، لا يستغنى عنها مجتمع و لا تزهدها أمة .

و قد مثلت الخطابة رمزاً من رموز وعى المجتمعات و تخلفها ، و تقدمها و تأخرها ، و كانت دلالة على ما يعيشه المجتمع من حرية و انطلاق ، أو من ذل و استرقاق .

فعلى قدر ازدهارها تكون الحرية ، و على قدر ذيوعها يكون الوعى .

من هنا وجدنا كيف اهتمت بها الأمم فكانت لسان حالها فى فترات قوتها و ضعفها ، فى قوتها حتى ترسخ ، و فى ضعفها حتى تنهض .

و على قدر ما للخطابة من أهمية كانت أهمية الخطيب و منزلته فى مجتمعه ، فمثَّل الخطيب فى مجتمعه رمزاً للقيادة و رآية للريادة ، و حتى يظل هذا الرمز فاعلاً ، و الراية مرفوعة كان لابد أن يتحلى هذا الخطيب بجملة من الصفات و المحامد و التى لا تتحق بضغطة زر ، بل إنها رحلة

طويلة من الجهد و العمل يساهم فيها بنفسه ، و يشاركه مجتمعه فى صنعها بما يملكه من مؤسسات دعوية و إرشادية .

لابد للخطيب أن يرتدى حلة الإخلاص ، و يتزين بزينة الصدق ، و يسلك مسالك الجهد و المثابرة ، يعيش مجتمعه ، و يتكلم من واقعه ، حتى يراعى مخاطبيه و يعطى لكل ما يتناسب معه .

لابد أن يتوافر فيه العقل النابه ، و القريحة المتقدة ، و البديهة الحاضرة فهذا من أسس القيادة حتى تكون فاعلة مؤثرة .

و تأتى فنيات الخطاب ، و أسرار الحوار ، و حذقه عوامل التأثير فى نفوس سامعيه من أهم عوامل فتح القلوب و إقناع العقول و استمالة النفوس .

و يأتى إلمامه بلغته العربية و معرفة أسرارها و التزامه النطق بها يرسم جانباً تعبدياً فى الحفاظ على دينه ، و جانباً نفسياً فى إكتساب ثقته فى نفسه و ثقة الآخرين به ، فضلاً عما تقدمه اللغة من جمال فى الأسلوب و وضوح للمضمون مما يعبّد الطريق نحو النفاذ لعقول الناس و قلوبهم .

و بذا تكون الدراسة قد قدمت كلمة فى الخطابة و دورها و طرق تفعيلها ، و كلمة للخطيب بما ينبغى أن يكون عليه ، حتى يكون خطابه هادفاً ، و ظله

على جمهوره وارفاً ، يأنس الناس بظله فلا يصابون بملل ، و يتفاعلون بكلامه فيندفعون نحو العمل ، و ذاك بغية كل داعية و خطيب ، و أمنية كل مرشد أريب .

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ، و قلباً خاشعاً ، و رزقاً واسعاً ، و عملاً متقبلاً و شفاء من كل داء و إجابة للدعاء . اللهم توفنا مسلمين و ألحقنا بالصالحين .

و صلى اللهم و سلم و بارك على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم .